

الدين .. والدجل
(١٧)

أوهام.. وحقائق

د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

هذه مقالات متفرقة تجتمع حول الدعوة إلى شيء واحد، وهو العودة لمصدر الحقيقة الصافية الذي لم يتلبس بوهم، ولم يختلط بهوى، ولم يلم به الشيطان، ولا أذناب الشيطان.

وذلك المصدر المقدس لا يتمثل إلا في الوحي الإلهي المعصوم، والذي جعله الله مرجعا عند التنازع، وعدم التنازع..

لكنه ـ عند تتبع مسار الأمة من خلال تاريخها وتراثها ـ نجد هجرا مقصودا أو غير مقصود لذلك المصدر المقدس، واللجوء بدله إلى الكثير من المصادر الممتلئة بالوهم، وتحت أسماء مختلفة، كالسلف أو الخلف أو الكشف أو الشهود أو الإلهام.. أو غير ذلك من الأسماء.

ولأجل مراعاة كل تلك المصادر البديلة التي زرعت الأوهام في واقعنا وديننا تعرض القرآن الكريم للكثير من التأويل والتعطيل والهجر..

وهذا الكتاب تذكير بالعودة إليه.. وبالبعد عن كل مصادر الأوهام. في واقعنا وتراثنا.

الدين .. والدجل

(17)

أوهام .. وحقائق

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1438 - 2017

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة 6

الدين الوراثي 9

الدين والعقل 11

هل نحن معرضون عن النبوة؟ 18

اجتهد فأخطأ 21

الدين .. والعاطفة الكاذبة 24

تناقضات قلبية 29

التدين بين الإلزام والإقناع 32

الشهادة لله.. والورع البارد 37

الحياد.. وخذلان الحق 43

سلفية الشيعة 47

حوار مع صوفي سلفي 51

القرآن .. وأوهام الشيوخ 57

لا تتخطوا رقاب الصديقين 65

الشفاعة بين الوهم والحقيقة 73

دعوها .. فإنها منتنة 86

الشيخان .. وصناعة الوهم 100

أولا ـ الوهم .. والغيب: 103

ثانيا ـ الوهم .. والقيم: 117

الوهم .. والفضول المعرفي 127

التصوف: بين المدح والقدح 139

المقدمة

هـذه مقـالات كتبتهـا في مناسـبات مختلفـة، لكنهـا تجتمـع جميعـا حـول الـدعوة إلى شـيء واحـد، وهـو العـودة لمصـدر الحقيقة الصافية الذي لم يتلبس بوهم، ولم يختلـط بهـوى، ولم يلم به الشيطان، ولا أذناب الشيطان.

وذلـك المصـدر المقـدس لا يتمثـل إلا في الـوحي الإلهي المعصوم، والذي جعله اللـه تعـالى مرجعـا عنـد التنـازع، وعـدم التنازع.. كمـا جعلـه مرجعـا لنعـرف من خلالـه حقـائق الإنسـان والكون والحياة، ونسير وفق سنن الله وقوانينـه ونظامـه الـذي وضعه لها جميعا.

لكنه ـ عند تتبع مسار الأمة من خلال تاريخها وتراثها ـ نجـد هجرا مقصودا أو غير مقصود لذلك المصدر المقـدس، واللجـوء بدلـه إلى الكثـير من المصـادر الممتلئـة بـالوهم، وتحت أسـماء مختلفة، كالسلف أو الخلف أو الكشف أو الشهود أو الإلهام.. أو غير ذلك من الأسماء.

ولأجـل مراعـاة كـل تلـك المصـادر البديلـة الـتي زرعت الأوهـام في واقعنـا وديننـا تعـرض القـرآن الكـريم للكثـير من التأويل والتعطيل والهجر..

وبما أنه لا يمكن حصر مظاهر الوهم، وكيفية تسلطها على الحقائق وتشويهها لها، فقد اقتصرنا على نمـاذج متفرقـة منهـا، لتدل على غيرها.. ذلك أن كل هذه السلسـلة [الـدين والـدجل] محاولـة للبحث عن مصـادر الـوهم ومظـاهره في المـدارس الإسـلامية المختلفـة، وبيـان وجـوه مخالفتهـا أو صـراعها مـع الحقائق.

وأحب أن أذكر هنا لأولئك المثبطين الذين يـرون في نشـر مثل هـذا نشـرا لغسـيل هـذه الأمـة، وتشـويها لهـا، وأننـا بـذلك نناقض مـا ورد في النصـوص المقدسـة من خيريـة هـذه الأمـة، كقولـه تعـالى: ﴿كُنتُمْ خَيْـرَ أُمَّةٍ أُخْـرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمـران:

110]، وقد غفل هؤلاء عن سر من أسرار هذه الخيرية، أو سبب من أسبابها، وهو ما ورد في تكملة الآية من قوله تعالى: ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:110]

فالآية تضع شرطا لهذه الخيرية، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما أخطر من أن يتعلقا بفروع المسائل، ويقصرا في أصولها.. أو أن يرتبطا بعامة الناس البسطاء، ويقصرا في خواصهم وأهل الرأي والعلم والحكم فيهم.

وقد أخبر القرآن الكريم عن المصير الذي آل إليه بنو إسرائيل، والتحريف الذي وقع لدينهم، وكل ذلك بسبب السكون عن محاربة الدجل، أو التحذير منه، بحجة حفظ حرمة الأحبار والرهبان، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) ﴾ [المائدة: 78 - 81]

وقد ورد في الحديث تفسير لبعض مظاهر ذلك، حيث قال ﷺ: (إن بنى إسرائيل لما وقع فيهم النقص كان الرجل فيهم يرى أخاه يقع على الذنب فينهاه عنه فإذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم القرآن ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الآيات لا حتى تأخذوا على يد الظالم فتأطروه على الحق أطرا)[1]

بل إن الله تعالى اعتبر الإسرائيليين الذين لم ينكروا على تلاعب قومهم بحرمة السبت، وهي شريعة شرعت لهم، حاولوا الاحتيال عليها، بكونهم مشاركين لأصحاب الحيلة أنفسهم.

فقد قسم الله تعالى أهل السبت إلى ثلاثة أقسام، قسم ارتكبوا جرم المخالفة، وقسم نهوهم، وقسم سكتوا عنهم، لكنه

1() الترمذى (5/252، رقم 3048) ، وابن ماجه (2/1327، رقم 4006)، الطبرانى فى الأوسط (1/166، رقم 519)

عند ذكر عقوبته لهم ذكر أنه لم ينجو إلا المنكرون.. وهذا يعـني أن الساكتين والفاعلين نالتهم نفس العقوبة، قـال تعـالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًـا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَـذِّبُهُمْ عَـذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُـونَ (164) فَلَمَّا نَسُـوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَـذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُـوا بِعَـذَابٍ بَئِيسٍ بِمَـا كَـانُوا يَفْسُـقُونَ (165)﴾ [الأعـراف: 164، 165]

بناء على هذا، فإن الواجب الـذي نـرى أنفسـنا مكلفين بـه هو الوقوف في وجه الدجل والاحتيال والتلاعب بالـدين من غـير أن يكـون لنـا انحيـاز لأي مدرسـة من المـدارس أو جهـة من الجهـات.. ولـذلك شـملت المقـالات الكثـير من المـدارس والتوجهات مع اختلافاتها الشديدة بينها..

الدين الوراثي

من أعظم الحجب الحائلـة بين ملايـير النـاس في واقعنـا، وفي جميـع التـاريخ، وبين دين اللـه الأقـوم، مـا يمكن تسـميته [الدين الوراثي].. وهـو دين ينطلـق من الأنـا وكبريائهـا، ليرسـم لصاحبها أنـه ومن ولـد معـه في تلـك البيئـة، أو من شـاركه في ذلك الدين، ومـارس معـه تلـك الطقـوس.. وحـدهم فقـط على الحق المجرد، وغيرهم على ضلالة.

وقد كان هذا الـدين هـو الـذين اعتنقتـه عـاد وثمـود وقـوم فرعـون.. الـذين رددوا جميعـا، ــ وهم يواجهـون أنبيـاءهم بكـل كبرياء ـ ما ذكره القرآن الكريم عنهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِين﴾ [الأنبياء:53]، وقال: ﴿قَـالُوا بَـلْ وَجَـدْنَا آبَاءنَـا كَذَلِكَ يَفْعَلُون﴾ [الشعراء:74]، وقال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَـا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُون﴾ [الزخرف:22].

وهكذا أعطى القاعدة العامة لهؤلاء جميعا، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُون﴾ [الزخرف:23]

وما ذكره الله عن سنته في الأمم السالفة هو نفسه الـذي وجد في هذه الأمة.. فما كان لهـذه الأمـة أن تتخلـف عن سـنن اللــه.. ولــذلك دب فيهــا هــذا النــوع من الــدين.. وكــان ســببا لصراعات كثيرة بينها وبين نفسـها، وبينهـا وبين الأمم الأخـرى.. وحل هذا الدين في الأخير بديلا لدين الله الأقوم الذي لم يختلط بالبيئات ولم تؤثر فيه الأجيال.

وأول علامات هذا الدين هو الكبرياء والفخر والتباهي.. مـع أن دين اللـه الأقـوم هـو الـذي يملأ صـاحبه بالتواضـع والمحبـة والإحساس بالحزن والألم على كل المخلوقات، كما كان رسول الله ﷺ صاحب الدين الأقوم الـذي قـال لـه ربـه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَـفًا﴾ [الكهـف: 6]، وقال له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِين﴾ [الشـعراء:

وثاني علامات هذا الدين أن صاحبه يعتقد أن الجنة خلقت له، ولطائفته، لأنهم شعب الله المختار، وأنهم لا يدخلون النار في حال دخلوها إلا أياما معدودات.. وما بعدها لن يدخلوا الجنة فقط.. وإنما سيدخلون الفردوس الأعلى.. وسيتكلف رسول الله ﷺ نفسه بأن يسقيهم.

هذه هي الأماني التي يتعلق بها أصحاب الدين الوراثي، ولذلك ينحجبون بها عن كل مكرمة، ويندفعون بها إلى كل مثلبة.

وثالث علامات هؤلاء.. وهي علامة عجيبة .. أنك تجد أحدهم أميا غارقا في جهله إلى أذنيه، لكنه إن رأى أحدا يصلي خلافا صلاته، أو يتوضأ خلاف وضوئه أقام الدنيا عليه.. وطالبه بالدليل، مع أن كل عقائده وعباداته ومعاملاته مبنية على التقليد المجرد.. بل على أسوأ أنواع التقليد، وهي تقليد جاره أو صديقه.. لكنه إن رأى خلاف ما علمه صديقه أو جاره تصور أن الدين قد قوض من أساسه.. وكأن الدين هو دين جاره أو صديقه أو جهله المركب.

ورابع علامات هؤلاء أنك تجد أحدهم يسمع كل ألوان السبب لله ورسوله، فلا يتحرك له جفن، ولا ينتفض له عرق.. لكنه إن رأى عالما أو محققا أو باحثا يدقق في بعض مسائل العلم التي لا يطيقها عقله، راح يتهمه بالمروق والزندقة والضلال.. وكأن الذين يسبون الله ورسوله أمامه صباح مساء عابدون في محاربيهم، أو ناسكون في خلواتهم.

لكن الدين الوراثي هو الذي فعل به ذلك.. وهو الذي جعله يردد ما ردده فرعون: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:29]

الدين والعقل

يتوهم البعض أن دعوتنا لإعمال البحث العقلي في الدين ليست سوى إعطاء للعقل مجالا غير مجاله، وصلاحيات غير صلاحياته.. فالعقل معقول ومقيد، ويستحيل عليه أن يتعرف على المعارف العليا التي لا تخضع لمجاله.

وهذا كلام صحيح من نواح كثيرة.. ولكنه ليس صحيحا مطلقا.. لأن القرآن الكريم دعا إلى إعمال العقل في أمهات قضايا الدين.. ولا يصح أن نرمي هذه الدعوات سلة المهملات.

إذن ما هي علاقة الدين بالعقل.. وكيف نعمل العقل في مجاله.. والدين في مجاله.. وكيف نسمح لأنفسنا بمناقشة العقل للدين؟

وللإجابة على هذه الأسئلة نستحضر بعض الأمثلة التي نوقشنا فيها كما نوقش فيها الدعاة إلى إخضاع النصوص الروائية ـ خصوصا ـ للعقل..

وكمثال على ذلك الموقف من حديث الذباب أو حديث البكتريا اللذين رواهما أصحاب الصحاح عن أبي هريرة.. وانتقدناهما نقدا شديدا، واستعملنا العقل في النقد.. وتصور البعض أننا بنقدنا لذلك ننقد رسول الله ﷺ نفسه.. ولم يضع في حسابه أننا ننقد رواة الحديث، ولا يهمنا من كان منهم هل هو أبو هريرة أو البخاري أو غيرهما..

ونقدنا ذلك منطلق من مقدمات عقلية وقرآنية غاية في الدقة.. فرسول الله ﷺ الذي أخبر الله تعالى عنه أنه لا ينطق عن الهوى، وأن كل معارفه معصومة ومستمدة من الوحي الإلهي يستحيل أن يقع في مثل هذا الخطأ.. ولذلك فنحن استعملنا العقل، لا لضرب الوحي، وإنما لحمايته من الخرافة والدجل الذي تسرب إليه.

وحجتنا في الرد أيضا عقلية وشرعية.. ذلك أن الوهم

الذي دخل تلك الأحاديث لابد أن يكون له أحد مصدرين: إما أن يكون رسول الله ﷺ.. وذلك مستحيل لمقدمات عقلية كثيرة.. وإما أن يكون مصدره أبو هريرة أو الرواة عنه.. وذلك جائز، وباتفاق الناقدين لنا.. لأن أبا هريرة أو غيره من الرواة لا يستحيل عليهم الخطأ، لا عقلا ولا شرعا، بل قد وقع منهم ذلك، ووقع التصحيح لهم من طرف الصحابة أنفسهم..

ثم إنه لا ضرر في نسبة الخطأ إليهم إذا ما ناقشنا المستشرقون أو المستغربون الذين يتهمون رسول الله ﷺ بسبب تلك الأحاديث.. لأننا لم نزعم لهم أننا نقول بعصمة النقلة والرواة والأسانيد.

وهذا الموقف يعطينا قوة كبيرة في مواجهة الحداثيين أو اللادينيين أو غيرهم ممن يثيرون الشبهات علينا بسبب أمثال تلك النصوص.. لأن مساحة دفاعنا ستبقى مختصة بالمقدس، لا ما عداه.

ولذلك فإنه من المستحيل على من يقدس التراث أو يقدس التاريخ أو يقدس أمثال تلك الروايات أن تكون له القدرة على مواجهة مثيري الشبهات على الإسلام.. إلا إذا استعمل المنهج الذي نراه في الواقع .. وهو منهج السباب والتضليل والتكفير.. وهو منهج يزيد في تشويه الإسلام أكثر مما يساهم في رد الشبهات عنه.

هذا هو موقفنا.. وهو موقف شرعي عقلاني أخلاقي.. يقدم رسول الله ﷺ على أي كان صحابيا أو تابعيا .. سلفيا أو خلفيا.

بينما موقف الآخرين موقف هش ضعيف، لا شرعي ولا عقلاني، بل إن الجرأة وصلت بهم في سبيل حفظ عصمة أبي هريرة والرواة عنه إلى اتهام رسول الله ﷺ نفسه..

وقد ذكرنا في كتابنا عن أبي هريرة ذلك الموقف المخزي الذي وقفه المحدثون من تلك الرواية العجيبة المتناقضة والتي يروي فيها أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (فقدت أمة من

بني إسرائيل، لم يدر ما فعلت، وإني لا أراها إلا الفأر، ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لا تشربه، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته)، قال أبو هريرة: حدثت بهذا الحديث كعبا، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقلت: نعم، فقال لي ذلك مرارا، فقلت: أتقرأ التوراة؟!)(1)

فقد ذكر السلفيون والمحدثون قبلهم أن معلومات رسول الله ﷺ التي ذكرها في هذا خاطئة، وأنها كانت باجتهاد منه، لأن الحديث يتعارض مع حديث آخر يذكر أنه لا عقب للمسخ.

وقد عبر بجرأة كبيرة عن هذا المعنى الشيخ عبد العزيز الراجحي، فقال ـ تعليقا على الحديث ـ: (يعني: أن الفأر مسخ، لأمة من بني إسرائيل مسخوا فأرا، وهذا قاله النبي ﷺ بظنه واجتهاده، حيث قال: ولا أراها -بضم الهمزة- أي: أظنها. وهذا قاله قبل أن يوحى إليه أن الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام، وإنما مسخ بنو إسرائيل قردة وخنازير ثم لم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيام كما قال الله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أما الفأر فهو أمة من الأمم، وكذا القردة أمة، وكذا الخنازير والكلاب أمة، أما الممسوخون فإنهم لم يكن لهم نسل ولا عقب، بل ماتوا بعد ثلاثة أيام)(2)

وللأسف فإن هذا الراجحي لم ينكر عليه أحد هذه الجرأة، لأنه لم يتجرأ على تخطئة أبي هريرة، وإنم تجرأ على تخطئة رسول الله ﷺ.. والمهم عند السلفية وأتباعهم أن تبرأ ساحة أبي هريرة.. ولا يهم أن تدنس ساحة رسول الله ﷺ.

وهؤلاء الذين يقولون هذا لم يقرأوا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]، فهل يمكن لرسول الله ﷺ أن يقفو ما ليس له به علم.. وهل يمكن أن يخبر عن ذلك أصحابه،

1() رواه أحمد (2/234، رقم 7196)، والبخارى (3/1203، رقم 3129)، ومسلم (4/2294، رقم 2997) وأبو يعلى (10/420، رقم 6031)، والديلمى (3/126، رقم 4340)، وغيرهم.

2() انظر موقعه على النت.

وكأنه حقيقة علمية ثابتة؟

هذا هو موقفنا من علاقة الدين بالعقل.. ولذلك فإن المجادلين الذين يتصورون أن إنكار مثل هذه الروايات إنكار لكل عالم الغيب الذي لم يدل عليه العقل لم يفهموا دور العقل.. فنحن لم نقل بأن للعقل القدرة على التوصل على معرفة الغيب.. فذلك مستحيل.. وإنما دور العقل قاصر على معرفة صدق الرسول عن طريق البراهين والمعجزات.. فإذا صدق الرسول صدق كل ما جاء به من باب الضرورة العقلية..

مثلما نصدق نحن رواد الفضاء الذين يخبروننا عما رأوا في القمر وغيره، لثقتنا بهم، حتى لو لم نر ما لم يروا.

ومصدر كل هذا الوهم هو عدم التفريق بين أحكام العقل .. فأحكام العقل المرتبطة بالغيب هي الجواز.. أي أنه يجوز كل شيء يخبر عنه المعصوم.. بشرط أن يكون الخبر صحيحا، وعن طريق قطعي، وألا يتعارض مع الواقع والحس.

فالسلفي الذي يؤمن بأن الأرض ثابتة أو أن الشمس تدور حولها بناء على نصوص يراها مقدسة واهم، لأن النصوص المقدسة القطعية لا تقول بذلك.. والعقل والواقع لا يقول بذلك.. ولذلك فإن العقل والشرع يقتضيان أن نطرح كل النصوص التي تدل على ذلك، أو نؤولها التأويل المتناسب مع مقتضيات العقل.

وأحب أن أنهي هذا التوضيح الذي لم نكن بحاجة إليه، لولا الجدل الذي أثير حول المسألة بكلمات جميلة لأبي حامد الغزالي يقول فيها: (اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس، والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس)[1]

ثم شبه العلاقة بينهما تشبيها آخر، فقال: (وأيضا فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع

[1] معارج القدس في مدارج معرفه النفس (ص: 57)

من خارج ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر)

ثم شبه العلاقة بينهما تشبيها ثالثا، فقـال: (وأيضـا فالعقـل كالسـراج والشـرع كـالزيت الـذي يمـده فمـا لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم يكن سراج لم يضئ الزيت)

ثم استدل لذلك بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَـا مِصْـبَاحٌ الْمِصْـبَاحُ فِي زُجَاجَـةٍ الزُّجَاجَـةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَـةٍ زَيْتُونَـةٍ لَا شَـرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَـادُ زَيْتُهَـا يُضِـيءُ وَلَـوْ لَمْ تَمْسَسْـهُ نَـارٌ نُـورٌ عَلَى نُـورٍ﴾ [النور: 35]

وعلق على الآية الكريمة بقوله: (فالشرع عقـل من خـارج والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان بـل متحـدان.. ولكـون الشرع عقلا من خارج سلب الله تعالى اسم العقـل من الكـافر في غير موضع القرآن نحو قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقـرة: 171] ولكـون العقـل شـرعا من داخـل قـال تعالى في صفة العقل: ﴿فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: 30]، فسمى العقـل دينا ولكونهما متحدين قـال: ﴿نُـورٌ عَلَى نُـورٍ﴾ [النـور: 35]﴾ أي نور العقل ونور الشرع، ثم قال: ﴿يَهْدِي اللـه لِنُـورِهِ مَنْ يَشَـاءُ﴾ [النور: 35] فجعلها نورا واحدا، فالشرع إذا فقد العقل لم يظهر به شيء وصار ضائعا ضياع الشعاع عند فقد نور البصر، والعقل إذا فقد الشرع عجز عن أكثر الأمور عجز العين عند فقد النـور) [1]

هكـذا يفهم علمـاء الإسـلام الحقيقـيين لا المـزيفين علاقـة العقل بالشـرع.. فلا ينفـون أحـدهما لأجـل الآخـر.. ولا يقـدمون أحدهما على الآخر.. لأن كليهما شرع.. فمسـلمات العقـول هي شريعة الله التي شرعها اللـه لهـا في جبلتهـا وفطرتهـا، وإلا مـا دعا ﷺ إلى استفتاء العقول والقلوب.

ففي الحديث عن وابصة الأسـدي قـال: أتيت رسـول اللـه

[1] معارج القدس في مدارج معرفه النفس (ص: 57)

ﷺ، وأنا أريد أن لا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألته، فأتيته في عصابة من الناس يستفتونه، فجعلت أتخطاهم، فقالوا: إليك يا وابصة عن رسول الله ﷺ، فقلت: دعوني أدنو من رسول الله ﷺ، فإنه أحب الناس إلي أن أدنو منه، قال: (دعوا وابصة، ادن يا وابصة، استفت قلبك، واستفت نفسك، استفت قلبك، واستفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك، ثلاثا)(1)

والحديث صريح في الدلالة على أن على المتلقي ألا يضع نفسه بين يدي المفتي كالميت بين يدي الغسال كما يشاع، وإنما عليه أن يناقش ويبحث ويتأكد، ويستفتي قلبه ونفسه، حتى لا يقع فيمن ذكرهم الله تعالى، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَاب (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:166-167]

ولذلك فإن المقولة الشائعة: (ضعها في رقبة عالم واخرج منها سالم)، أو قولهم (ضع بينك وبين النار شيخ) غير صحيحة، بل متناقضة مع كل القيم العقلية والقرآنية.. لأن أقوام الأنبياء طبقوا هذه المقولات، وخضعوا للملأ من قومهم.. فأضلوهم سواء السبيل..

وكما أضل الملأ أقوامهم، فلا مانع عقلا ولا شرعا أن يمارس الملأ من هذه الأمة المهنة التي مارستها الأمم من قبلهم.. مهنة التضليل، كما صرح بذلك رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة.

منها ما رواه أبو ذر قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، فقال: (لغير الدجال أخوفني على أمتي)، قالها ثلاثا، قال: قلت: يا رسول الله، ما هذا الذي غير الدجال أخوفك على أمتك؟

---

(1) رواه أحمد 4/228 (18164) وفي (18169)، والدارمي: 2533.

قال: (أئمة مضلين)[2]

---

[2] رواه أحمد 5/145 (21621) وفي 5/145 (21622)

هل نحن معرضون عن النبوة؟

هنـاك جانبـان في حيـاة رسـول اللـه ﷺ وفي وظائفـه الدعوية، أحدهما يمكن التعبير عنه بالرسالة، وهو تلـك التعـاليم العقدية والسلوكية التي بلغهـا رسـول اللـه ﷺ عن ربـه، والـتي اتفقت الأمـة على قبولهـا، والأخـذ بهـا.. وإن اختلفت في درجـة ذلك.

والجانب الثاني، هو مـا يمكن التعبـير عنـه بـالنبوة.. أو هـو معنى من معاني النبوة.. وهو كونه ﷺ مخبرا عن مستقبل هـذه الأمة، وما ستمتحن به من أنـواع الامتحـان، وكيـف تخـرج منهـا سـالمة، وهـذا للأسـف لقي إعراضـا كبـيرا من لـدن الكثـير من النـاس.. وخصوصـا البـاحثين منهم، مـع أن رسـول اللـه ﷺ أدى ذلك على أحسن وجه وأكمله، ومع أن الكثير من ذلك قـد بلغنـا بوضوح ودقة لا يمكن الشك فيها.. ولكن مع ذلك كله نرى الأمة في هذا الجانب تعرض عن رسـول اللـه ﷺ ، فتـذكر من العلـل غير ما ذكره، بل تتهرب مما ذكره، وتحتال عليه بصنوف الحيل.

ومن أمثلـة ذلـك قولـه ﷺ في الحـديث الـذي اتفـق عليـه الشـيخان البخـاري ومسـلم، وهـو مـا رواه سـعيد بن عمـرو بن العاص قال: كنت مع مروان وأبي هريرة في مسـجد النـبي ﷺ، فسمعت أبا هريـرة يقـول: سـمعت الصـادق المصـدوق يقـول: (هلاك أمتي على يدي أغيلمة من قريش، فقال مـروان: غلمـة، قال أبو هريرة: (إن شئت أن أسميهم بني فلان وبني فلان)[1]

فمع صحة الحديث، ومـع كونـه إخبـارا من رسـول اللـه ﷺ عن دور أولئك الأغيلمة من قـريش، والـذين ورد في تفسـيرهم في روايات أخرى بكونهم من بني أمية الـذين يشـملون معاويـة ومن بعده.. ولكن مـع ذلـك لا نـرى اهتمامـا بـالبحث عن هـؤلاء الأغيلمـة، ولا عن أسـرار إهلاكهم للأمـة، ولا إفسـادهم لهـا، في نفس الوقت الـذي نجـري فيـه وراء روايـات كاذبـة عن شـخص يهودي اسمه عبد الله بن سبأ لنستبدل به أولئك الأغيلمة الـذين

1() أحمد (2/324) والبخاري (4/242).

رفعنا من شأنهم، وحولهم سلفنا إلى أئمة وهداة .. وحول ملكهم المستبد إلى خلافة راشدة تمثل الإسلام.

وهكذا نتعامل مع إخباره ﷺ عن مواطن الفتن والزلازل، والذي حدده بدقة في قوله: (اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا)، فقالوا: وفي نجدنا يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: (اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا)، فقال الناس: وفي نجدنا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (الزلازل والفتن هناك: وهناك يطلع قرن الشيطان) [1]

فمع صحة الحديث، ووضوحه، وانطباقه تماما على المنطقة التي ظهرت فيها الوهابية، وآل سعود.. ومع الدلائل التاريخية والواقعية الكثيرة التي تبرهن على ذلك، إلا أن الحيل الشرعية التي تعلمناها جعلتنا ننصرف عن ذلك كله.. فنسمي بلاد الفتن ومركزها [بلاد التوحيد]، ونسمي الملوك الذين دنسوا الحرمين بـ [خدام الحرمين]

وهكذا نتعامل مع قوله ﷺ: (إن بعدي من أمتي ــ أو سيكون بعدي من أمتي ــ قومٌ يقرؤون القرآن، لا يجاوز حلاقيمهم، يخرجون من الدِّين كما يخرج السهم من الرميِّة، ثم لا يعودون فيه، هم شرُّ الخلق والخليقة) [2]، وكان ابن عمر ـ أحد رواة الحديث ــ يصفهم، فيقول: (إنهم انطلقوا إلى آيات الله نزلت في الكفار، فجعلوها على المؤمنين)[3]

وهذا لا ينطبق إلا على فئة محدودة معلومة، هي وحدها من ترمي المسلمين بالشرك، وهي وحدها من تشبههم بالمشركين، بل تفضل المشركين عليهم، ومع ذلك نظل ندافع عنها، بل نعتبرها تمثل السنة، وكأن نبوءة رسول الله ﷺ حولها كانت كنبوءات سجاح ومسيلمة تفسر بعكسها.

---

[1] () رواه البخاري ومسلم وغيرهما

[2] () رواه مسلم.

[3] () رواه البخاري.

وهكذا نظل نتلاعب بكل نبوءاته ﷺ.. التي لم تـترك شـيئا.. حتى ما يحصل الآن في بلاد الشام واليمن وغيرهـا كلـه مـذكور وبتفاصيله في كتب الدلائل وغيرها.. وكان الأولى بـه أن يـدرس ويحقق فيه، لأن رسول الله ﷺ الحريص على هذه الأمة ما كان ليترك شيئا يؤذيها إلا ذكره وحذر منه..

لكن أولئـك الـذين يقتـدون ببـني إسـرائيل في الكتمـان لا يزالون يحيـون تلـك السـنة، ويتهربـون من كـل النبـوءات الـتي تلاحقهم.. فإن جاء بـاحث أو محقـق وأخـرج لهم تلـك النبـوءات ودعاهم إلى تفعيلهـا رمـوه بـالرفض ومـا تشـتهيه نفوسـهم من ألقــاب.. مــع أن الكتب الــتي وردت فيهــا تلــك الأحــاديث هي كتبهم.. والعلماء الذين صححوها هم علماؤهم الذين ملأوا الـدنيا ضجيجا بالدعوة إليهم.

اجتهد فأخطأ

[اجتهد فأخطأ] عبارة نسمعها كثيرا ممن يدافعون عن الجرائم التاريخية التي ارتكبها من يضعون لهم قداسة خاصة.. ويتوهمون أن هؤلاء وحدهم لهم الحق في أن يجتهدوا ويخطئوا، حتى لو جر ذلك الاجتهاد إلى خراب البلاد والعباد.. وحتى لو جر لتحريف الدين نفسه.. وحتى لو جر إلى ارتكاب الموبقات التي ارتكبها الفراعنة والطغاة المجرمون.

في نفس الوقت الذي يقف فيه أولئك المتسامحون مع تلك الجرائم التاريخية بشدة وقسوة وغلظة مع كل من اجتهد في بيان جرائمهم، وحاول أن يوثقها، أو يقف منها موقفا سلبيا من باب الشهادة لله، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ [هود:113]

وهذه مواقف عجيبة ومتناقضة ولا تتناسب مع عدالة الله، ولا تتناسب مع السماحة التي يزعمون أنهم يتصفون بها.

أما عدم تناسبها مع عدالة الله، ولا سننه في خلقه، ولا القيم التي تضبط الكون والحياة، وتجعل منهما كائنا منسجما تمام الانسجام، فواضح فالله تعالى يقول: ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: 3]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:49]

ومن مقتضيات هذه الآيات الكريمة أن سنته في خلقه جميعا واحدة.. فهل يمكن أن تسمح العدالة الإلهية لمجرم مسلم، ولا تسمح لمجرم غير مسلم.. أم أنها يمكن أن تتساهل مع جريمة عاش صاحبها في القرن الأول، ولا تسمح لجريمة عاش صاحبها في القرن العاشر.. أم أنها يمكن أن تسمح فيمن اجتهد فأخطأ، وقتل الآلاف، ولاتسمح لمن اجتهد فأخطأ برأي أو بوجهة نظر، ولم يسفك قطرة دم واحدة.

أما عدم تناسب موقفهم مع السماحة التي يزعمونها

لأنفسهم، فهو أنه من مقتضيات الأخلاق العموم.. فالذي يصدق مع صديقه، ولا يصدق مع غيره لا يسمى صادقا، بل قد يسمى منافقا.. والذي يتسامح مع قوم، ويتشدد مع آخرين لا يسمى متسامحا، بل يسمى محابيا ومطففا وصاحب شهادة زور.

ولذلك، فإن من العجائب أن هؤلاء الذين نسمعهم الآن يكفرون ويبدعون ويصرخون في وجه كل من يدعو لنفي الدجل عن الدين، وتحرير التراث من العفن، وتحرير عقل المسلم من القيود التي قعدت به عن كل مكرمة..

هؤلاء الذين يفعلون ذلك، هم الذين يبتسمون بكل هدوء عندما تخبرهم أن عدد قتلى يوم صفين كانوا ــ كما يذكر المؤرخون ـ مائة وعشرة آلاف، وفيهم كبار الصحابة والتابعين.. وعدد قتلى معركة الجمل يتراوح ما بين ستة آلاف وخمسة وعشرين ألفا.

ثم يجيبك بكل هدوء: لا بأس .. ليس في ذلك شيء .. هذا مجرد اجتهاد خاطئ.. والله رحيم بعباده.. وقد غفر الله للجميع، بل إنه أعطى المخطئين أجورا على خطئهم.. وتلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلنطهر منها ألسنتنا.

فإذا قلت له: فما تقول في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:93]، فالله قد توعد القاتل بكل هذه العقوبات الشديدة إذا قتل مؤمنا واحدا، فكيف بمن تسبب في قتل الآلاف؟

قال لك بكل برودة وهدوء: ذاك في القاتل الذي لم يجتهد.. أما القاتل الذي اجتهد وأخطأ فستبدل سيئاته حسنات.. ألا تقرأ القرآن؟

فإذا قلت له: إذن يمكن لأي شخص أن يفعل ذلك.. ويجتهد في أن يجد أي مثلبة في أي جهة ليمعن فيها سيفه كما كان يفعل بسر بن أرطأة .. ذلك الذي قال فيه ابن العماد: (بسر بن أرطاة العامري أمير معاوية في أهل البيت من القتل

والتشريد، حتى خدّ لهم الأخاديد، وكانت له أخبار شنيعة في عليّ وقتل ولدي عبيد الله بن عبّاس وهما صغيران على يدي أمّهما، ففقدت عقلها، وهامت على وجهها، فدعا عليه عليّ أن يطيل الله عمره، ويذهب عقله، فكان كذلك)[1]

قال لك بكل برودة: بسر بن أرطأة صحابي جليل.. والصحابة كلهم عدول مهما فعلوا..

فإذا قلت له: ما دامت رحمة الله بهذه السعة.. فلم لا تشمل إسلام البحيري وغيره ممن أودعتموهم السجون بسبب آراء ذكروها؟

قال لك بعنف وشدة وقسوة: لا تحدثني عن أولئك الزنادقة .. فشتان بينهم وبين الصحابة الأجلاء الذي تشرفوا برؤية رسول الله ﷺ.

فإذا قلت له: فهل جاء رسول الله ﷺ لقومه ليروه، أم جاء ليهتدوا بهديه.. ألم يذكر الله تعالى أن عقوبة من عاش مع رسول الله ﷺ ورأى المعجزات بعينيه أشد من عقوبة غيره، كما قال تعالى: ﴿يَانِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:30]؟

قال لك والزبد يتطاير من فمه: أنت زنديق .. ضال.. مجرم.. تسب الصحابة.. رافضي .. مجوسي..

ويظل يردد ذلك، وكأنه إله مستو على عرشه.

---

[1] () شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (1/ 277)

الدين .. والعاطفة الكاذبة

يتوهم الكثيرون أن الدين هو مجموعة عواطف وانفعالات وجدانية تجعلهم يتحركون ويهتزون، أو يمارسون أي سلوك لتلبية ما تتطلبه تلك العواطف من أفعال.

لكنهم يخطئون كثيرا في ذلك.. فالعواطف المجردة عن العلم والعقل والتحقيق أوهام كاذبة، وشباك يصطادهم بهم الشيطان، ليوقعهم في دجله وانحرافاته، ويجعلهم سدنة لخدمة مشروعه.

ولذلك بدأ الله تعالى رسالة نبيه ﷺ بالأمر بالقراءة.. والقراءة تقتضي التدبر.. والتدبر يقتضي تفعيل العقل، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: 46]

ولذلك فإن القلب في القرآن الكريم لا يعني المحل الذي تتنزل فيه العواطف، وتتحرك فيه المواجيد فقط .. بل يعني قبل ذلك المحل الذي تصنع فيه الأفكار.. فالمواجيد المجردة عن العقل هوى كاذب، وتلبيس شيطاني ماكر، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]

بناء على هذا المعنى انطلق الشيطان ليخرب المشروع الإلهي الذي جاء به رسول الله ﷺ عبر إشعال تلك الغرائز الكاذبة المسماة عواطف.. وكان أول ذلك أن أخرج معاوية للناس قميص عثمان، وهو ملطخ بالدماء ليحرك عواطفهم لحرب الإمام علي، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار..

والتفتت تلك العواطف الباردة لتلك الدماء التي امتلأ بها القميص.. وبكوا كثيرا.. واستغل الشيطان بكاءهم ليملأهم بالأحقاد.. وليرسلهم لحرب بقية الصدق التي بقيت في الأمة..واستطاع أن يحقق مشروعه بعد ذلك بنجاح.

وهكذا ظل الشيطان يجلب عبيد العواطف الكاذبة بأمثال

هذه الأمور، حتى أنه استطاع أن يصدع وحدة هذه الأمة عبر مسائل بسيطة، وقضايا وهمية، ولكنه عجنها بمعجون العاطفة الكاذبة التي لا عقل معها.. فصار يخرج لكل نفر من الناس قميصا من القمصان، ويدعوهم إلى إثارة الفتن لأجله.. مثلما يفعل المتلاعبون بالثيران الهائجة.

وكثمال على ذلك .. الموقف من أبي هريرة.. والذي دعا الكثير من المتنورين من أصحاب التدين العقلاني إلى ترك تقديسه، والتعامل مع أحاديثه وفق المعايير القرآنية، لا بطرحها جميعا، ولكن بتنقيتها حتى لا تصبح تلك الأحاديث معاول يهدم بها الإسلام.

لكن الشيطان أسرع إلى عواطف هؤلاء يحركها، ويظهر لهم قميص أبي هريرة المضرج بالدماء.. فراحوا بدل التحقيق فيما ذكره المتنورون يدافعون عن كل دجل، وينتصرون لكل خرافة حتى لو كان في ذلك تشويها لرسول الله ﷺ نفسه.

ومن الأمثلة على ذلك الموقف من أحاديث أبي هريرة الواردة في فتح القسطنطينية، والمروية في كتب الصحاح، وهي أحاديث مرتبطة بالنبوءات، وهي مصدر من مصادر الدلالة على النبوة، والنبوءة الكاذبة دليل على النبوة الكاذبة.

ومع أن النبوءات التي ذكرها أبو هريرة تتنافى مع الواقع تماما، فقد ذكر في حديثه خلاف ما وقع في فتح القسطنطينية تماما، ومع ذلك راح أصحاب العواطف الكاذبة بدل تكذيب حديثه أو تكذيب رواته، يؤولون بأصناف التأويلات الباردة، ليوقعوا رسول الله ﷺ نفسه في الحرج، وكأن أبا هريرة أهم عندهم من مصداقية رسول الله ﷺ نفسه.

وحتى لا أتهم بالدجل والكذب، فهذا حديث أبي هريرة أمامكم، وأمامكم القسطنطينية، والتي لم تفتح بعد بحسب حديث أبي هريرة.. فهل نصدق أعيننا أم نصدق حديثه؟

لقد ورد في حديثه الذي رواه عن النبي ﷺ أنه قال: (سمعتم بمدينة، جانب منها في البر، وجانب منها في البحر؟

قالوا: نعم يا رسول الله، قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفا من بني إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله، والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها - قال ثور بن يزيد: لا أعلمه إلا قال: الذي في البحر - ثم يقولون الثانية: لا إله إلا الله، والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولون الثالثة: لا إله إلا الله، والله أكبر، فيفرج فيدخلونها فيغنمون، فبينما هم يقتسمون المغانم، إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون)[1]

والحديث في صحيح مسلم وغيره من كتب السنة، وقد تلقته الأمة بالقبول.. ومع ذلك هو يزعم أن بمجرد فتح القسطنطينية يظهر الدجال وينزل المسيح.. فهل حصل ذلك؟ .. وهو يزعم أن القسطنطينية فتحها أولاد إسحاق، فهل كان ذلك كذلك؟.. وهو يزعم أنها فتحت من غير سلاح، فهل حصل ذلك؟

ومثله حديث آخر .. وهو أكثر خطرا من هذا الحديث، وقد وقف أصحاب العواطف الكاذبة فيه في صف أبي هريرة ضد رسول الله ﷺ، والحديث هو ما رواه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (فقدت أمة من بني إسرائيل، لم يدر ما فعلت، وإني لا أراها إلا الفأر، ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لا تشربه، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته)، قال أبو هريرة: حدثت بهذا الحديث كعبا، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقلت: نعم، فقال لي ذلك مرارا، فقلت: أتقرأ التوراة؟!)[2]

وموقف أصحاب العواطف الباردة من من هذا الحديث عجيب جدا، وهو دليل على تعظيمهم لأبي هريرة وغيره من الصحابة أكثر من تعظيمهم لرسول الله ﷺ نفسه، ذلك أنه

---

[1] رواه مسلم في الفتن (18: 33)

[2] رواه أحمد (2/234، رقم 7196)، والبخارى (3/1203، رقم 3129)، ومسلم (4/2294، رقم 2997) وأبو يعلى (10/420، رقم 6031)، والديلمى (3/126، رقم 4340)، وغيرهم.

يتناقض ويتعارض معارضة تامة مع حديث آخر يروونه عن رسول الله ﷺ يقول فيه: (إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً. وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك)(1)

وذلك ما يستدعي تكذيب حديث أبي هريرة بالضرورة، وهو ما فعلوه، لكنم لم ينسبوا الكذب والوهم لأبي هريرة، وإنما نسبوه لرسول الله ﷺ ، واعتذروا لذلك بأنه ﷺ اجتهد في ذلك، ولم يقل عن علم أو وحي..

وقد عبر عن هذا المعنى الشيخ عبد العزيز الراجحي، فقال ـ تعليقا على الحديث ـ: (يعني: أن الفأر مسخ، لأمة من بني إسرائيل مسخوا فأرا، وهذا قاله النبي ﷺ بظنه واجتهاده، حيث قال: ولا أراها -بضم الهمزة- أي: أظنها. وهذا قاله قبل أن يوحى إليه أن الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام، وإنما مسخ بنو إسرائيل قردة وخنازير ثم لم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيام كما قال الله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أما الفأر فهو أمة من الأمم، وكذا القردة أمة، وكذا الخنازير والكلاب أمة، أما الممسوخون فإنهم لم يكن لهم نسل ولا عقب، بل ماتوا بعد ثلاثة أيام)(2)

وقبله قال بن حجر: (وذكر عند النبي ﷺ القردة والخنازير فقال أن الله لم يجعل للمسخ نسلاً ولا عقباً وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك وعلى هذا يحمل قوله ﷺ لا أراها إلا الفأر وكأنه كان يظن ذلك ثم أعلم بأنها ليست هي) (3)

وهذا التعليل المشوه لرسول الله ﷺ يتناقض مع كل تلك القيم التي دعا إليها القرآن الكريم، وقد كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، وأولها تناقضه مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]

---

(1) فتح الباري 353/6.

(2) انظر موقعه على النت.

(3) فتح الباري 353/6.

ويتناقض مع قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3، 4]

ويتناقض مع كل تلك الأحاديث الصحيحة المتواترة، التي تبين أن رسول الله ﷺ لا يقول إلا حقا، ومنها قوله ﷺ في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو، قال: قلت: يا رسول الله، إنى أسمع منك أشياء أفأكتبها؟ قال: نعم. قلت: فى الغضب والرضا؟ قال: (نعم، فإنى لا أقول فيهما إلا حقا)[1]

وهكذا نراهم يدافعون عن أبي هريرة وكل التشويهات والتحريفات التي وردت في أحاديثه، والتي يحكم العقل والعلم ببطلانها.. ومع ذلك فإن العقول المقيدة بتلك العواطف الكاذبة يستحيل عليها أن تسمع صوت العقل والحكمة، وكيف تسمعها، وهي تظل تصرخ وتصيح من غير علم ولا هدى.

---

[1] هذا الحديث ورواياته التالية في: أحمد (2/162)، (6510) و(2/192)، (6802). والدارمي (490) وأبو داود (3646)، وابن خزيمة (2280)، وغيرهم.

تناقضات قلبية

من أكبر الأوهام خطرا تلك التي تتعلق بالقلب، محل العواطف والمواجيد.. فهو لا يتحمل اجتماع النقائض، لأنه مرآة الروح، والمرآة لا تستطيع أن تتوجه لجهتين متناقضتين في نفس الوقت.

ولذلك نرى في الواقع أن من أحب شخصا أبغض كل أعدائه، وأبغض كل من يؤذيه، ولو بكلمة، ثم نرى ذلك البغض يتحول إلى حقد، ثم قد يتحول إلى عنف حسي أو معنوي.. وقد لا يتحول.

ولعل أقوى الأدلة على ذلك هو ذلك الموقف الشديد الذي اتخذه الكثير من الذين لا يسعني إلا أن أحترمهم،وإن كنت أختلف معهم، بسبب موقفي من معاوية أو غيره ممن يتيمون محبة وعشقا لهم.. ولذلك أنا أقدر وضعهم، فحب الشيء يعمي ويصم، والعشق يستبد بصاحبه، حتى لا يبقى له مجال للتفكير أو البحث أو التعقل.

وأنا مثلهم أيضا عاشق ولهان، ولكني وجهت قلبي إلى قبلة غير التي وجهوا لها قلوبهم.. لقد اجتهدت كثيرا في أن أبحث لقلبي عن قبلة طاهرة حتى يتقدس بذلك التوجه.. وبعد البحث الطويل لم أر سوى تلك العترة الطاهرة التي أوصانا بها رسول الله ﷺ.. بل أوصانا بها قبله الله تعالى عندما قال: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: 23]

وقد جرني ذلك إلى البحث عن القيم التي تحملها، فوجدتها نفس القيم التي تنادي بها فطرتي السليمة، ونفس القيم التي نادى بها القرآن الكريم، ونادى بها رسول الله ﷺ .. لأنهم بذرته التي سقاها وتعهدها.. فازداد تعلقي بهم، وخرج حبي لهم من طور العاطفة المجردة إلى طور التعقل والاستبصار.

وقد كان أول من سرى إليهم أثر حبي لهم أولئك الصحابة

الصادقين من المهاجرين والأنصار الذين عاشوا الإسلام بقيمه النبيلة الطاهرة، وضحوا في سبيله بكل شيء، وفدوا رسول الله ﷺ بأموالهم وأنفسهم، وقد ازداد حبي لهم عندما رأيتهم يقفون بقوة مع إمام العترة الطاهرة الإمام علي في صفين وفي غيرها من المواقف ليذودوا عن حمى الإسلام الأصيل من أن تمتد إليه يد التحريف والتأويل والتعطيل.

وبما أن الحب ينتج بغضا للجهة المعاكسة للمحبوب، فقد كان من الطبيعي أن أبغض كل الذين سولت لهم أنفسهم أن يشهروا أسلحتهم الحاقدة على ذلك الإمام العظيم، إمام المتقين، وحبيب الله ورسوله ﷺ .

وقد كان على رأس قائمة الذين أبغضتهم في الله ــ نتيجة حبي لولي الله ــ معاوية ذلك الطليق الذي لم يستحيي من نفسه ولا من تاريخه ولا من تاريخ أسرته حتى راح ينازع الكبار الذين لا يرقى مثله لمثلهم.

وقد كان من الطبيعي .. بل من بديهيات المحبة الصادقة أن أنتصر لمن أحب، وأن أحارب من أبغض.. ولذلك كنت ـ ومن غير شعور مني ــ أشدو في كل مجلس بقصائد عشقي للطاهرين، وأتلو قصائد الهجاء في المحاربين لهم..

وأنا أطمئن كل أصدقائي الذين يخشون على مصيري يوم القيامة، لأقول لهم ــ وأنا واثق في فضل الله ــ لا تخافوا .. فالمرء مع من أحب.. وأنا بحمد الله واثق في أن من أحبهم وتنعمت بالتأذي بسببهم، لن يتركوني هملا.. وسيشفعون لي عند ربي.

وإذا سئلت في عرصات القيامة عن معاوية.. فجوابي بسيط جدا، وهو أسهل علي من شرب الماء.. لأني سأقول: يا رب .. لقد أمرنا نبيك بحب الإمام علي، وبغض أعدائه.. وأن نكون سلما لمن سالم، وحربا لمن حارب.. وكان موقفي من معاوية من مقتضيات ذلك.. لأن قلبي الذي خلقته لا يتحمل أن يجتمع فيه ولي الله وعدوه.

وأنـا أطمئن كـذلك أحبـاب معاويـة، أنـه يمكنهم أيضـا أن يجدوه يوم القيامة، ويطلبوا شفاعته، وأن يستظلوا بظلـه الـذي لا أعرفه جيدا.. ولكني موقن تماما أن له ظل، فلكـل إمـام من أئمة الحق أو الباطل ظل يستظل به أتباعه..

قد يقولـون لي: نحن نحب الإمـام علي أيضـا، ولـذلك نحن جمعنا بين الحسنيين.. فقد ربحنـا عليـا، ولم نخسـر معاويـة، ولا الطلقاء.

وأقول لهم: هذا كذب.. بـل خـداع.. لا العقـل يتعقلـه .. ولا القلب يقبلـه.. وإن شـئتم أن تختـبروا أنفسـهم، فـانظروا إلى مواقفكم الواضحة التي يدل عليها كل شيء..

فأنتم تسارعون إلى كل حديث ورد في معاوية مهمـا كـان ضـعيفا تصـححونه، وتؤولونـه، لينسـجم مـع أهـواء قلـوبكم.. وتسارعون إلى كل حديث عن الإمام علي تضعفونه، وتكذبونـه، وتحرفونه عن مساره..

وهكذا تسرعون إلى كل من يتملق معاوية، ويكذب لأجلـه، تحتضـنونه، وتعانقونـه، وتنصـرونه.. وتـذهبون لكـل من يناصـر الإمام علي والثلة الطاهرة معه تناصبونه العداء، وتحذرون منه.

بل إن حب معاوية طغا على قلوبكم حتى صرتم تعرضـون على أحاديث رسول الله ﷺ نفسها، تلـك الـتي تحـذر منـه.. بـل تعرضون عن كبار الصحابة الـذين امتلأت بتحـذيراتهم من الفئـة الباغية الدواوين.

ألا يكفي هذا وحده لتعرفوا القبلة التي تتوجه لها قلوبكم؟

التدين بين الإلزام والإقناع

من أخطــر المفــاهيم الــتي تنتشــر بين الكثــيرمن الــدعاة تصــورهم أن الــدين يفــرض فرضــا، ويلــزم إلزامــا، وأن على المتلقي له أن يصيخ سـمعه، ويمتـد كـالميت بين يـدي الغسـال عنـدما يتحـدث إليـه الداعيـة، فلا يحـرك لسـانه ببنت شـفة، ولا يقول له: لم.. ولا كيف.. ولا غيرها من الأسئلة، فإن قـال ذلـك، فالويل له من سوط الداعية ولسانه البـذيء وأحكامـه الممتلئـة بالتعسف.

هذا حال الكثير من الدعاة الحداد الشداد أصـحاب الوجـوه المكفهـرة، واللسـان السـليط.. وهم يتصـورون أنفسـهم دعـاة للـه.. وهم حجب عنـه.. بـل هم دعـاة الشـيطان.. فالشـيطان يســتعملهم لتبغيض الخلــق في الــدين، وتنفــيرهم منــه.. ويستعملهم مع المغفلين ليحولهم من دين اللـه إلى دينـه، ومن قيم الشريعة إلى قيمه.

وسبب هذا السلوك الخاطئ، بل الإجرامي هو هجر القرآن الكريم والسنة المطهرة، والرجوع للمشايخ سواء كانوا سلفا أو خلفا.. والذين اتخذوهم أندادا من دون الله.

فــالقرآن الكــريم ينهى عن فــرض دين اللــه بــالإلزام، أو بالتعسف والتشدد، بل يدعو إلى إقامة الحجج والاكتفاء بالتبليغ، ثم ترك الأمر بعدها لصـاحب العقـل، ليسـتعمل عقلـه في تلـك الحجج، وقد يقتنع حينها، أو يقتنع بعدها، أو لا يقتنع أصـلا.. وكـل ذلك لا يهم الداعية في شـيء، لأن دوره أن يضـع دين اللـه في قــالب جميــل ممتلئ بالعقلانيــة، وممتلئ بــالطهر والجمــال.. وبعدها يـترك الحريـة للمـدعو في أن يقبـل مـا عـرض عليـه أو يرفضه..

هو يتعامل في ذلك تماما مثـل الشـركات المحترمـة الـتي تسوق بضائعها بطريقة مهذبة، وتختار لإشهارها أجمل العبارات، وتسوقها تسويقا لطيفا جميلا مملوءا بالمحفزات، لتكون الحرية

بعدها للمشتري.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في مواضع كثـيرة جـدا.. بل صرح به.. فقد ذكر العقـل باسـمه ومشـتقاته نحـو خمسـين مرة(1)، وذكـر أولي الألبـاب سـتة عشـر مـرة(2)، ومثلهم ذكـر أولي النهى(3).

بـل إن خطاباتـه مملـوءة بالحجـاج والـبراهين المختلفـة، والتساؤلات الكثيرة التي يدع للعقول بعدها الحريـة في التفكـير في الإجابة عليها،كما قال تعالى في آخر سورة الطور: ﴿فَـذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُـونَ شَـاعِرٌ نَتَـرَبَّصُ بِـهِ رَيْبَ الْمَنُـونِ (30) قُـلْ تَرَبَّصُـوا فَـإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَـاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَـأْتُوا بِحَـدِيثٍ مِثْلِـهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُـوا السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَـلْ لَا يُوقِنُـونَ (36) أَمْ عِنْـدَهُمْ خَـزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَـيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُـلَّمٌ يَسْـتَمِعُونَ فِيـهِ فَلْيَـأْتِ مُسْـتَمِعُهُمْ بِسُـلْطَانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَـهُ الْبَنَـاتُ وَلَكُمُ الْبَنُـونَ (39) أَمْ تَسْـأَلُهُمْ أَجْـرًا فَهُمْ مِنْ مَغْـرَمٍ مُثْقَلُـونَ (40) أَمْ عِنْـدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُـونَ (41) أَمْ يُرِيـدُونَ كَيْـدًا فَالَّذِينَ كَفَـرُوا هُمُ الْمَكِيـدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللـه سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)﴾ [الطور: 29 - 43]

وكـل هـذه تسـاؤلات عميقـة يحتـاج العقـل للتـدبر فيهـا، ومحاولة الإجابة عنها ليصل إلى الحقيقة بنفسـه، وبحريـة، ومن غير أن يلزمه أحـد.. لأن الإلـزام لا ينشـئ مؤمنـا، وإنمـا ينشـئ منافقا يحتال على نفسه، أو يحتال على الناس.

ولهذا أخبر الله تعـالى رسـوله ﷺ أن مهمتـه قاصـرة على البلاغ والتبـيين وإقامـة الحجـة بالـدليل والبرهـان.. وليس عليـه

(1) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص 468، 469.

(2) المعجم المفهرس ، ص644.

(3) المعجم المفهرس ، ص722.

بعدها أن يحرك العقول لتقتنع أو لاتقتنع لأن ذلك يخضع لاعتبارات نفسية كثيرة.. فقد لا يقتنع الشخص حين إقامة الحجة عليه، ولكنه بعد أن يعمل عقله، ويفكر في البراهين، يتغلب على نفسه، ويؤمن بعد ذلك.

ومن الآيات الواردة في ذلك، والتي تحدد بدقة دور سيد الدعاة وإمامهم وقدوتهم رسول الله ﷺ، قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) ﴾ [الغاشية: 21 - 22]، وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ [الشورى:48].

فالله تعالى في هذه الآيات الكريمة يحدد وظائف رسول لله ﷺ بدقة .. وأنه ليس عليه ولا علي أي داعية يستن بسنته أن يمارس استبداده وتسلطه مع أي كان.. لأن الهداية من الله، والجزاء لله، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56]

وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ .. فلم يكن يستعمل إلا هذه الأساليب التي كلف برعايتها.. وقد ورد في الحديث أن شابا جاء يستأذن رسول الله ﷺ في الزنا، وبكل جرأة وصراحة، فهمَّ الصحابة أن يوقعوا به؛ فنهاهم ﷺ ثم أدناه بتلطف، وقال له:(أترضاه لأمك؟!)، قال: لا، فقال رسول الله ﷺ:(فإن الناس لا يرضونه لأمهاتهم)، ثم قال:(أترضاه لأختك؟!)، قال: لا، فقال ﷺ:(فإن الناس لا يرضونه لأخواتهم)[1]، وهكذا صار الزنى أبغض شيء إلى ذلك الشاب فيما بعد، بسبب هذا الإقناع العقلي.

وفي حديث آخر عن بعض الصحابة قال: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت:(يرحمك الله)، فرماني القوم بأبصارهم فقلت:(ما شأنكم تنظرون إلي)، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما نهرني ولا

---

[1] رواه أحمد: 5/256، وغيره.

ضربني ولا شتمني، قال:(إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) (1)

لكن الكثـــير من الـــدعاة للأســـف تصـــوروا أن لهم من الصــلاحيات مــا ليس لرســول اللــه ﷺ نفســه، فلــذلك راحــوا يســتعملون كــل مــا في قلــوبهم من كبريــاء مــع من يتصــورون أنفســهم أوصــياء عليهم.. ولا يكتفــون فقــط بــدعوتهم.. وإنمــا يضيفون إليه كل ألوان البذاءة والوقاحة والعنف.. ثم يتصــورون بعد ذلك أن القلوب والعقول تقتنع بحججهم.. وهل يمكن لعاقل أن يقبل حجة تفرض عليه؟

ولذلك نــراهم يــتركون هــدي القــرآن الكــريم في الــدعوة، والــذي بينــه رســول اللــه ﷺ خــير بيــان.. ويســتدلون بســلفهم وخلفهم على ذلــك الاســتبداد الــدعوي، والتســلط الــذي يلبس لباس الدين.

ومن الأمثلة على ذلك إشادتهم بما فعلــه الظــالم المســتبد خالد القسري الذي كان واليا علي العراق لهشام بن عبدالملك، والذي ذبح الجعد بن درهم يوم العيد بسبب بعض آرائه العقدية، ثم خطب الناس وقال: (أيها الناس! ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن اللــه لم يتخــذ إبــراهيم خليلا، ولم يكلم موسي تكليما) ، ثم نزل وذبحه أمام الناس(2).

فقد أثنى على هذا السلوك الداعشي الإجرامي كل ســلف هــؤلاء الســلفية ابتــداء من ابن تيميــة وابن القيم وانتهــاء بــابن عثيمين الذي قال في درس من دروسه العموميــة: (جــزاه اللــه خيرا، فالناس يضحون بالغنم والشــاة والمعــز والبعــير والبقــر .. وهــذا ضــحي بشــر منهــا، فإنــه شــر من الإبــل والغنم والحمــير والخنازير.. وإني أسأل الآن: البعير عن ســبع، والبقــر عن ســبع، وهذا الرجل عن كم .. عن آلاف آلاف وقي الله شرا كبيرا، لكن بعض الناس _ والعياذ بالله_ يقولون إن هذا العمل من خالــد بن

1() رواه مسلم، ح(537)

2() البخاري في (خلق أفعال العباد) ص 69..

عبد الله القسري ليس دينا، ولكنه سياسي، ونقول لهم هذا كذب، لأن الرجل صرح أمام الناس أنه قتله من أجل هذه البدعة)[1]

هذه هي سنة الدعاة الفتانين الذين تركوا رسول الله ﷺ وتعلقوا بخالد القسري وابن بطة والبربهاري وابن عثيمين ووجدي غنيم والقرضاوي و القرني والعريفي وغيرهم من الحجب.

[1] هذا الكلام للشيخ محمد بن صالح العثيمين في شرح العقيدة الواسطية..

الشهادة لله.. والورع البارد

يتوهم الكثير أنه عندما يفتش في بطون التـاريخ، ليكشـف المجرمين والدجالين والمشوهين لـدين اللـه .. أو عنـدما يبحث في الواقــع، ويحطم بعض الأصــنام الــتي تعلــق بهــا البعض واحتجبوا بها عن الحقيقة .. يتوهم أن فعله ذلك مضـاد للتقـوى، ومخالف للورع.

ويتوهم أو يوسوس له الشيطان أن الورع هو أن يقـف مـع الظلمة حكاما كانوا أو علماء، أو يكون حياديـا، لا مـع هـؤلاء، ولا مع هؤلاء.. وهذا هو الورع الشيطاني البارد.

فنحن مطالبون بالأمرين جميعا:

مطالبون بالتفتيش والتنقيب عن كل مشـوه لـدين اللـه أو محرف للقيم الإنسانية الرفيعـة الـتي جـاء بهـا، سـواء كـان في واقعنا الذي نعيشه، أو كان في غابر التاريخ.

ونحن مطالبون كذلك بأن ندلي بشهادتنا بحسب ما أوصلنا إليــه اجتهادنــا.. لأن الســاكت عن الحــق شــيطان أخــرس.. والسكوت عن الجريمة تثبيت لها، بل ربط لها بدين الله.

والغرض من هذه الشهادة ليس تنفيسا عن أحقاد تختزنهــا الصدور، وإنما هو تطهير لدين الله من كل الرواسب والأشــواك التي علقت بـه، فحولتـه من حديقـة غنـاء ممتلئـة بزهـور القيم الجميلة إلى مفازة ممتلئة بالأشـواك والعقـارب والحيـات الـتي تنهش كل من دخلها لتخلصه من إنسانيته.

لقـد نص القـرآن الكـريم على هـذه الوظيفـة من وظـائف الأمة، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:143]

والعجب أننا نقـرأ هـذه الآيـة، ونفخـر بمـا فيهـا من معـان، ونتصور أننا نحن المقصودون.. بل إننا نضـيف إلى تفسـير هـذه الآية قوله ﷺ: (يُدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا

رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير؟ فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ)[1]

ونؤكد هذا التفسير بما قال المفسرون .. كقول القرطبي: (قال علماؤنا: أنبأنا ربنا تبارك وتعالى في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة، وتوليه خطير الشهادة على جميع خلقه، فجعلنا أولاً مكاناً، وإن كنا آخراً زماناً..)[2]

ومثله قال ابن القيم: (أخبر أنه كما جعلهم أمة وسطاً خياراً اختار لهم أوسط جهات الاستقبال وخيرها، كما اختار لهم خير الأنبياء، وشرع لهم خير الأديان، وأنزل عليهم خير الكتب، وجعلهم شهداء على الناس كلهم لكمال فضلهم وعلمهم وعدالتهم، وظهرت حكمته في أن اختار لهم أفضل قبلة، وأشرفها لتتكامل جهات الفضل في حقهم بالقبلة، والرسول، والكتاب، والشريعة)[3]

ونحن لا ننكر كل هذا.. لا الحديث.. ولا أقوال المفسرين.. ولكنا ننكر ذلك التقزيم والتحقير لهذه الوظيفة العظيمة التي كلفت بها هذه الأمة، واختصارها في الشهادة على الأمم الأخرى، وكأننا شعب الله المختار المعصوم الذي يشهد على الآخرين، ولا يشهد على نفسه.. ولا يشهد عليه أحد.

فهل يعقل أن نشهد يوم القيامة على جرائم فرعون وقارون والنمروذ ونيرون ولينين وهتلر وشارون .. ثم نسكت عن جرائم لا تقل عنها ارتكبها معاوية ويزيد ومروان والمتوكل وغيرهم من طواغيت التاريخ؟

أم أن الدماء التي سفكها الطواغيت من المسلمين دماء حلال، يصح أن نسكت عليها، بينما الدماء التي سفكها هتلر دماء

1() رواه البخاري (4217)

2() الجامع لأحكام القرآن (2/148)

3() مفتاح دار السعادة (2/31)

حرام، لا يصح السكوت عليها؟

وهكذا يقال في العلماء الذين اتخذناهم أندادا من دون الله.. فهل يصح عقلا وشرعا أن نشهد على ما ارتكبه الأحبار والرهبان من تبديل دين الله وأكل أموال الناس بالباطل، كما أخبرنا القرآن الكريم بذلك.. ثم نسكت عن جرائم لا تقل عنها ارتكبها بعض علماء هذه الأمة في حق الأمة، وفي حق الإنسانية جميعا؟

الكثير يتناول الأمور بعاطفية وهوى مجرد.. ويعزل العقل تماما.. وقد رأيت بعضهم ينافح عن شيخ الفتنة في هذا العصر يوسف القرضاوي الذي أفتى بخراب ليبيا وسوريا والعراق.. ولو أتيحت له الفرصة لأفتى بخراب كل شبر على هذه الأرض..

قلت له ـ وهو سكران في غمرة عواطفه الباردة ــ : ألم تعلم كم قتل هذا الرجل الذي تدافع عنه بفتاواه؟.. ألا تخشى أن تتحمل ما تحمل من جرائم؟.. ألا تخشى أن يخاصمك يوم القيامة كل من أساء إليهم وشردهم وخرب أوطانهم؟

قال: هو عالم مجتهد.. وحتى لو وقع في بعض الأخطاء فسيظل عالما.. بل سيؤجر على خطئه.. هو مأجور على كل حال.. ولو ذكرت شيئا يسوؤه لصرت أنا المدان، لأني تعرضت للحوم العلماء المسمومة.

قلت له: إن من مقتضيات الأخلاق الإسلامية، والوحدة التي تجمع بين المؤمنين، بل من مقتضيات العقل والفطرة السليمة أن نضع أنفسنا محل المظلومين والمستضعفين.. فتصور أن القرضاوي الذي تدافع عنه أفتى بمصادرة مالك .. وقتل ولدك.. أكان موقفك منه نفس الموقف؟

قال لي ـ وهو يكذب على نفسه ـ : أنا لا أتعامل معه بمثل ما يتعامل معي.. ولا أحمل الحقد عليه.

قلت له: ليست القضية قضية حقد ولا عاطفة.. نحن مطالبون بالشهادة لله.. مطالبون بأن نقول للمجرم: قد

أجـرمت .. لا فـرق بين من وضـع التـاج على رأسـه، أو وضـع العمامة.. بل إن من وضع العمامة وراح يتاجر بهـا أخطـر.. فمـا كان لصاحب التاج أن يظل في استبداده لولا صاحب العمامــة.. وقد قال فولتير عبارته المشهور: (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخــر قسيس)

قال لي ــ وهـو يكـذب على نفسـه ــ : اسـكت يـا رجـل.. فلحوم العموم مسمومة.

قلت لـه ــ وأنـا لم أملـك نفسـي من الغضـب على هـذه الموازين العجيبة ــ : ولحـوم الـذين قتلهم وشـردهم ونكـل بهم وخرب بلادهم.. أهي لحوم حلال؟

سكت، ولم يجب.. فأردفت أقول: أنت بين ورعين: بين أن تتورع عن شخص مجرم واحد، أو مجموعة أفراد، ولديك الأدلــة الكافيــة الــتي تحضــرها معــك يــوم القيامــة إذا خوصــمت في شهادتك.. وبين أن تتورع عن السكوت عن الجرائم التي لحقت بمئات الآلاف، بل بالملايين .. بل بدين اللـه نفسـه.. فـدين اللـه صار بضاعة لكل مجرم يتاجر بـه، اقتـداء بهـذا الطـاغوت الـذي تدافع عنه.

كـاد صـاحبي ينفجـر من حـديثي هـذا، فقلت لـه: رويـدك، وأخبرني عن الشيخ علي جمعة.

فغضب غضبا شديدا، وراح يلعنه ويسبه.. فقلت لــه: لم لم تتورع عن هذا الشيخ الجليل، وهو عالم فقيه أصولي .. بــل هــو أكـثر علمـا من قرضـاويك بـدرجات..وهـو فوقـه صـلاحا وورعـا وزهدا؟

قـال لي: لـو كـان ورعـا لمـا أفـتى الشـرطة بـأن تضـرب بالمليان.

قلت له: نعم هو أفتى بذلك لسـلطة شـرعية حـتى تحفـظ أمن بلـدها في وجـه الـذين يريـدون إثـارة الفتن فيهـا.. ولم يـر سبيلا لوقف الشغب إلا هذه الوسيلة، فأفتى بها.. أما قرضـاويك

ومن معه من طواغيت العلماء، فقد أعطوا فتاواهم للإرهابيين ولعامة الناس ليقضوا على كل من يخالفهم في الموقف من الحاكم.. وفتواه لم تكن في محل خاص، ولقوم خاصين وفي وضع خاص.. ولم تسرب كما سربت فتوى الشيخ علي جمعة، وإنما نطق بها على الملأ، وفي قناة يشاهدها عشرات الملايين.. وكان في إمكانه ـ وهو الذي يزعم لنفسه الشجاعة والإخلاص ــ أن يذهب لسورية، ويلتقي برئيسها، ويحاول أن يجري صلحا بينه وبين المعارضين له.. لكنه لم يفعل، في الوقت الذي ذهب فيه إلى كابول ليتوسط لدى طالبان ليحموا تماثيل بوذا.. فهل تماثيل بوذا أكثر حرمة من الشعب السوري، والدولة السورية، والمؤسسات السورية؟

وأيهما أكثر جرما.. ذاك الذي وضع لفتواه محلها الخاص بها، وفي حدود الضرورة.. أم ذاك الذي راح يعطي المبرر الشرعي لكل الجماعات الإرهابية.. وعلى الملأ.. ومن دون تمييز؟

ثم قلت له: لم لا ترجع لأقوال القرضاوي نفسها، والتي يذكر فيها أن علماء كل بلدة أدرى بها، وأدرى بكيفية التعامل مع أوضاعها.. وقد كان البوطي في سورية، وهو أكثر علما وورعا من القرضاوي بكثير.. فلم لم يجلس إليه، ويستشيره في هذا؟

أو لم لم يترك لعلماء سورية الكبار كالشيخ البوطي والشيخ حسون وغيرهم كثير الحق في أن يتعاملوا مع النازلة التي نزلت ببلادهم، ليخلصوها منها وفق ما تقتضيه الحكمة والعقل والإسلام؟ ما لكم كيف تحكمون؟ .. وأين هي العدالة التي تقتضيها الشهادة؟.. وأين هو الورع الذي يجعل مصلحة الدين ونقائه وطهره أهم من كل مصلحة؟

أم أنكم تتلاعبون بالورع، وتتاجرون به.. وتصرفونه لمن يملكون الثروات والقنوات وتحرمون منه أولئك العلماء البسطاء الذين رغبوا عن كل ثروة في سبيل الحفاظ على قيمهم ومبادئهم، حتى استشهدوا في سبيلها؟

الحياد.. وخذلان الحق

من أخطر أنواع الكذب على الـذات، أو خـداعها، تـوهم أن الموقف السليم في الاختبـارات الـتي يضـعنا اللـه فيهـا موقـف الحياد.. لأنه موقف متناقض تماما مـع القيم الإلهيـة الـتي كلفنـا بأن نحياها، وأن نربي أنفسنا عليهـا، لنلقى اللـه وليس فينـا ذرة من غيره.

ذلـك أن المحايـد يريـد رضـى الطـرفين، وينسـى أن اللـه تعالى كلفه بأن يقف مع صـاحب الحـق لنصـرته، وضـد صـاحب الباطل لمواجهته أو الـرد عليـه، وليس هنـاك مسـافة رماديـة لا حــق فيهــا ولا باطــل.. كمــا قــال تعــالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَـانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله فَإِن فَـاءتْ فَأَصْـلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِـطِين﴾ [الحجـرات: 9]

وعند التحليـل النفسـي لهـؤلاء الـذين يتصـورون أنهم على الحياد، نجدهم يكذبون على أنفسهم، ذلك أنهم رأوا الباطـل في صفهم، وفي صف من جعلوهم أندادا من دون الله، فلذلك، بدل أن يختاروا مواجهتهم ــ كمـا تقتضـي الأوامـر القرآنيـة ــ راحـوا يتخلــون عن مبــادئهم، فيســكتوا عن بــاطلهم، بحجــة طيبتهم، وصفاء سريرتهم، وأنهم لا يحملون حقدا على أحد.

مثلمـا يعـبرون عمـا حصـل في صـدر الإسـلام من انقلاب الفئة الباغية على الإمام الحق الإمـام علي، فيقولـون عنـد ذكـر ذلك التاريخ: (تلك دماء طهـر اللـه منهـا أيـدينا، أفلا نطهـر منهـا ألسنتنا).. وكذبوا في ذلك لأننا مطالبون بأن نقف مع الحــق في أي زمان كان.. فالله يسألنا عن مواقفنا كما يسألنا عن صلواتنا وعباداتنا.

وهؤلاء ـ بفعلهم هذا ــ ينسـون أن من سـكت عن الباطـل شـيطان أخــرس.. وأن من سـكت عن نصـرة الحـق ــ في أي

زمان ومكان يحتاج إليه فيه ـ لا يختلف عمن تولى عن الزحف.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا عن أولئك الخوالـف الـذين لم ينضموا للمشركين في قتال المسلمين، لكنهم أيضا لم ينضـموا للمسـلمين لنصـرتهم عنـدما تـأليت عليهم الأحـزاب، فقـال: ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْـزَابُ يَـوَدُّوا لَـوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الأحزاب:20]

وهـذا النـوع من التفكـير والحيـاد هـو الـذي وقـع فيـه من توقفوا عن نصرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مـع علمهم بأنـه الإمـام الحـق.. بـل مـع علمهم أن رسـول اللـه ﷺ نفسـه أخـبرهم بـأن النـاكثين والقاسـطين والمـارقين يجتمعـون على حربه، ومع ذلك راح البعض يكسرون سـيوفهم، ويتوهمـون أنهم محايدون، وينسون أنهم قد خذلوا الحق، لتتمكن دولـة الباطـل، ولتخرج الإمامة من السابقين الصادقين أصحاب الزهـد والـورع إلى البغاة الطلقاء أصحاب الحرص والجشع.

وقـد كـان الإمـام علي يـذكرهم كثـيرا في خطبـه، ويشـنع عليهم، ويذكرهم بتقاعسهم عن نصرة الحق بحجة الورع البارد.

ومن كلماته في ذلك قوله: (ظهر الفساد، فلا منكر مغير، ولا زاجر مزدجر، أفبهـذا تريـدون أن تجـاوروا اللـه في دار قدسـه، وتكونوا أعز أوليائه عنده هيهات لا يخدع الله عن جنته، ولا تنـال مرضاته إلا بطاعته)، وقوله: (وإنما عقر ناقـة ثمـود رجـل واحـد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضى)، وقوله: (الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطـل إثمـان: إثم العمل به، وإثم الرضى به)، وقوله: لا يترك الناس شيئا من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم إلا فتح الله عليهم ما هو أضر منه)

وقوله ـ وهـو ممتلئ ألمـا من أولئـك المتخـاذلين ــ : (أيهـا النـاس، لـو لم تتخـاذلوا عن نصـر الحـق، ولم تهنـوا عن تـوهين الباطـل، لم يطمــع فيكم من ليس مثلكم، ولم يقــو من قــوي عليكم. لكنكم تهتم متاه بني إسـرائيل. ولعمـري، ليضـعفن لكم

التيه من بعدي أضعافا بما خلفتم الحق وراء ظهـوركم، وقطعتم الأدنى، ووصـلتم الأبعـد. واعلمـوا أنكم إن اتبعتم الـداعي لكم، سـلك بكم منهـاج الرسـول، وكفيتم مئونـة الاعتسـاف، ونبـذتم الثقل الفادح عن الأعناق)

وهذا الذي قاله سيد البلغاء، وحكيم الإسلام يعبر بدقـة عن أولئك الذين يسكتون عن الجـرائم الـتي يرتكبهـا من يتصـورون أنهم إخوانهم في الإسلام، أو علماءهم ومشايخهم، بحجة حرمة الحديث في أعراض العلماء.. ولست أدري أيهما أحق بالاحترام: الإسـلام نفسـه.. أم حرمـة أولئـك الـذين راحـوا يفتـون بقتـل المسلمين، وتدمير بلادهم، وهتك أعراضهم.

وهل حرمة المسلمين المستضعفين الفقراء الذين يبـادون في اليمن وســورية والعــراق أهم، أم أولئــك المــتربعين على عروش الفتوى والخطابـة، يملأون بطـونهم وجيـوبهم من عـرق المستضعفين ودماءهم؟

وهـل اسـتطاع هـؤلاء الطيبـون أن يصـدروا بيانـا واحـدا يسـتهجنون فيـه الكولـيرا في اليمن، ويتسـاءلون عن سـببها، ويتساءلون عن أولئك العلماء الذين نشروا البيانات الكثـيرة في تأييـد أولئـك المعتـدين؟.. لكن عنـدما وصـل الأمـر إلى أولئـك العلماء، واتهموا بالإرهاب قـاموا لنصـرتهم، وقـد نسـوا أنهم هم من أوقد نيران الباطـل، وهم من أصـدر البيانـات تلـو البيانـات، والفتاوى تلو الفتاوى لحرب المستضعفين ونصرة المستكبرين.

وعنـدما نسـأل الإمـام علي الـذي ابتلي بهـذا النـوع من المحايـدين نجـده يخبرنـا أنـه نفس السـبب الـذي وقـع فيـه المشركون عندما تصوروا أن الحق لا يتجاوز آباءهم وأجـدادهم، أو عظماءهم، فقال لمن استغرب أن يكـون محـاربوه مخطـئين مـع كـون بعضـهم كـان من أصـحاب رسـول اللـه ﷺ، بـل من المقـربين إليـه: (إنـك لمبلـوس عليـك، إن الحـق والباطـل لا يعرفـان بأقـدار الرجـال، اعـرف الحـق تعـرف أهلـه، واعـرف الباطل تعرف أهله)

وهذا نفس ما نطق به القرآن الكريم عندما دعانا إلى تخليص أنفسنا من كل الحواجز التي تحول بيننا وبين الحق، وأخطرها حاجز الرجال، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:24]

وعلى منوال هذه الآية الكريمة يقال: (قل إن كانت مذاهبكم وطوائفكم ومدارسكم وعلماؤكم ومشايخكم أحب إليكم من الله ورسوله.. فتربصوا)

سلفية الشيعة

مثلما توجد الظاهرة السلفية في المجتمعات السنية، فإننا نجد هذه الظـاهرة كـذلك في المجتمعـات الشـيعية في القـديم والحديث..

ومثلما لهذه الظاهرة رجالها وكتبها وقنواتهـا في المدرسـة السنية، نجد هؤلاء جميعا في المدرسة الشيعية.. فالشيطان لن يترك طائفـة دون أن يضـع بينهـا من يـؤدي رسـالته ومشـروعه على هذه الأرض.

لكن المشكلة هي أننا في المدرسة السنية نمـيز السـلفية عن غيرهم، بل نميز أتباع السلفية أنفسهم فنفـرق بين الجـامي والمدخلي والسرور والحدادي والمسالم والعنيف.. فنضـع لكـل فريق منهم اسمه الخاص، ودوره الخاص.. فإذا مـا انتقـد أحـدنا أي سـلوك سـلفي، قيـل لـه: لا تعمم، فالسـلفية ليسـوا شـيئا واحدا.

لكن إن تعلق الأمر بالشيعة، فإنهم يحملونهم جميعا، وعلى بكرة أبيهم كل أخطاء التاريخ والجغرافيا.. بل حتى ابن العلقمي وهـو لا عـالم ولا مرجـع، وإنمـا مجـرد وزيـر في دولـة، لا زالـوا يحملون وزره ـ إن صح ما يروى عنه ـ كل المجتمعات الشيعية.

وهذا خطأ منهجي في التفكير والمواقف يتنـافى مـع قولـه تعالى، وهو يخبر عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿لَيْسُـواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:113]، ويقـول: ﴿وَمِنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَـارٍ يُـؤَدِّهِ إِلَيْـكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْـهُ بِـدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ [آل عمران:75]

بناء على هذا، فإن السـلفية توجـد في المدرسـة الشـيعية مثلما توجد تماما في المدرسـة السـنية، ففيهـا من يلغي عقلـه وقرآنه، ليتبنى حكايات وخرافات وضـلالات لا معـنى لهـا.. فـإن دعي إلى إعمال عقله، صاح بما يصيح به كـل السـلفية (العقـل

حجاب، وليست عقولنا بأفضل من عقول سلفنا)

وهذا النوع من السلفية الشيعية هو الذي يخالف وعد اللـه تعالى بحفظ كتابه، باعتباره النور الهادي للأمة، كما قال تعـالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9]، فيدعون أن كتاب الله حرف.. وأن تحريفه لا يقتصر على المعنى، بل يشمل اللفـظ أيضـا، وهـذا كلـه انتصـار لأنفسـهم ضـد غـيرهم ممن يسمونهم نواصب، والأمثلة على هذا ذلك الكتاب الذي يرمي به السلفية كل الشيعة، مع أن مؤلفه شخص واحـد، ومن مدرسـة محـددة من المـدارس الشـيعية هي المدرسـة الإخباريـة، وهي مثل المدرسة السلفية تماما، تـنزل الأخبـار منزلـة القـرآن، بـل إنها ترى تعطيل القرآن لأجلها.

وهذا النـوع من السـلفية الشـيعية هـو الـذي تـرك الـدعوة لدين الله، والدعوة للمشتركات التي تتفق الأمـة جميعـا عليهـا، وراح، وفي البلاد الـتي صـدرت لنـا كـل أنـواع الفتن، يتكلم في عرض أمهات المؤمنين ليسـتثير الأحقـاد، ويصـدع وحـدة الأمـة، غـافلا عن أن حقـده جـره إلى تشـويه عـرض رسـول اللـه ﷺ نفسه.. فمن يتكلم في زوجـة أي رجـل كـان، هـو في الحقيقـة يتكلم في الرجل نفسه..

وهذا النوع من السلفية الشـيعية هـو الـذي يـردد مـا ردده قبله أئمة السلفية السنة، من أنه (من لم يكن معنا فهو ضـدنا)، فيعتبرون كل الأمة بعلمائها وصالحيها نواصب.. ويطبقون عليهم كل ما تمليه أحقادهم من أحكام، ومن رمي في جهنم، ويبدؤون في ذلك بالصحابة أنفسم، باعتبارهم جميعا ـ إلا عددا محـدودا ـ من النواصب من دون دليـل إلا تلـك النصـوص الواهيـة الـتي لا سند لها، ولا قوة تحميها، وهذا خلاف ما يردده أئمتهم وإخـوانهم في المذهب أنفسهم.

بـل إن هـؤلاء ولكبريـائهم لا يسـتثنون أصـحاب مدرسـتهم أنفسهم.. ومن شاء أن يتأكـد من ذلـك، فليـذهب وليسـتمع إلى مواقف ياسر الحبيب واللهياري من السيد حسـن نصـر اللـه، أو السـيد على الخامنـائي، أو السـيد السيسـتاني، أو غـيرهم من

مراجع الشيعة، فهم يضعونهم جميعا مع من يسمونهم نواصب في سلة واحدة.

وهذا النوع من السلفية الشيعية هو الذي يقدس كتبه الحديثية أكثر من تقديسه للقرآن الكريم، فلا يقبل أي جدال حول أي حديث، حتى لو تنافى مع العقل، ومع كل شيء، وهم يمارسون مع من ينتقد هذا من أصحاب مذهبهم، ذلك العنف الذي تمارسه السلفية السنية مع منتقدي أي حديث لا يقبله العقل أو يعارضه القرآن.

وهذا النوع من السلفية الشيعية هو الذي يشوه تلك العلاقة العاطفية التي تربطه بمن يزعم أنه يأتم بهم من أئمة أهل البيت.. فيجرح نفسه، ويرمي صدره وظهره بالسلاسل، ويتصور أنه بتلك الدماء التي تسيل منه يتقرب من أئمته، بينما هو لا يزداد منهم إلا بعدا، بل هو يمارس كل أنواع العداوة لهم، ويضع كل الحجب بين الأمة وبينهم.

وهذا النوع من السلفية الشيعية يمارس نفس ما يمارسه إخوانه من السلفية السنية من حرب كل جهة تدعو إلى المشتركات، أو التقارب بين المذاهب الإسلامية، أو التعايش بينهم، لأنهم يتصورون أن ذلك سيلغي خصوصيتهم، وهم أحرص على خصوصيتهم من حرص على الأمة نفسها.

وهذا النوع من السلفية الشيعية هو الذي يتصور ببلاهته وحمقه أنه بمجرد أن تقبض روحه سيلاقيه أئمته، ويأخذون بيده مباشرة إلى الجنة، فيكفيه من العمل محبتهم، ويكفيه من السلوك تلك الدماء التي سالت منه، وهو يمارس طقوس الحزن عليهم.. وهذا وهم كبير فلا أحد في هذه الأمة يرفع عنه القلم، والموازين التي يضعها الله لعباده، لن يفضل فيها شخص على شخص، ولا جهة على جهة، ولا مدرسة على مدرسة.

هذه بعض مظاهر السلفية الشيعية.. والدجل موجود بينها وسار فيها، كما هو موجود وسار بين أخواتها من أنواع السلفيات .. ونحن مع كل من يواجه هذا النوع من الدجل

الشيعي، ولكنا لسنا مع ذلـك التعميم الخـاطئ.. فالشـهادة للـه تـدعونا إلى التميـيز بين الـذي يعطي القـرآن الكـريم مركزيتـه الكبرى في هذا الدين، ويعتبره الثقل الأكبر، والمحل الـذي يـرد إليـه عنـد التنـازع، وبين غـيره ممن يغلب الأخبـار، أو يغلب من يراهم من أئمته على حساب عقله وقرآنه.

حوار مع صوفي سلفي

يتوهم الكثير أن السلفية لقب يطلق على طائفة محـدودة من الناس، والتي تتميز بأفكارها، ومظهرها، وأسـاليبها الخاصـة في التعامل مع الآخر.

وهذا صحيح من جهة التسـمية، فلقب السـلفية مخصـوص بتلك الطائفة، فهي التي رضيته لنفسها، وهكذا عرفهـا النـاس.. لكن ذلـك غـير صـحيح من حيث الواقـع.. ذلـك أن السـلفية كظـاهرة نفسـية واجتماعيـة نراهـا في الواقـع أعظم من أن تنحصر في طائفة دون طائفـة أو مـذهب دون مـذهب.. فيمكن أن يكون أكثر النـاس حربـا للسـلفية سـلفي ولا يـدري، بـل قـد يكون أشد عنادا منهم، وأكثر عصبية وحدة.. ونحن نرى ذلك في الواقع بوضوح لا يحتاج معه إلى دليل.

فالصوفي الذي يتوهم أنه متحرر من رق السلفية، لا يكون كـذلك إلا إذا تحـرر عقلـه من شـيوخه وأئمتـه وسـلفه ومن يسميهم أهل الله.. فلا يسلمهم عقله بالمجان، بـل ينتظـر منهم الحجـة والبرهـان، وقـد قـال الإمـام الجنيـد، وهـو من يسـمونه [سيد الطائفة]: (إن النكتة لتقع في قلبي من جهـة الكشـف فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل من الكتاب والسنة)، وقـال الشـيخ عبـد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية: (كل حقيقة لا تشـهد لها الشـريعة فهي زندقـة .. طِـرْ إِلى الحـق عـز وجـل بجنـاحي الكتاب والسنة، ادخل عليه ويدك في يد الرسول)

ولذلك فإن كل أولئـك الـذين يتلقـون عقائـدهم ومعـارفهم الإلهية من ابن عربي أو الجيلي أو القونوي أو الـدباغ أو غـيرهم من غير تمريرها على محك الكتـاب والسـنة الموافقـة للكتـاب، ومن غير تمريره على العقل المقدس الذي أنزله الله على كـل إنسان ليعرفه به، لا يختلـف عن السـلفية إلا في شـيء واحـد.. وهو أن شيخ السلفية هو ابن تيمية.. وشـيخه هـو ابن عـربي أو غيره من المشايخ.

وقد عجبت لبعض أصدقائي من الصوفية حين ذكر لي أنه لا عذاب في الآخرة، وأن كل أولئك العتاة المتجرين الظلمة الذين قضوا حياتهم في حرب أولياء الله، لن يعيشوا في الآخرة إلا السعادة، مثلهم مثل المؤمنين، ولا فارق بينهم سوى المحل الذين يكونون فيه، فالمؤمنون في الجنة، وغيرهم من العتاة في النار.. وكأن الآخرة مجموعة فنادق راقية: للتقاة فنادقهم، وللفجرة فنادقهم.

لم أستعجل في الرد عليه حتى لا أقع في شباك السلفية المتسرعة، بل رحت أطلب منه أن يدلي بحجته، وأثبت له براءة صدري، وأني مستعد لو أقنعني بالعقل والمنطق أو بالكتاب والسنة الموافقة للكتاب أن أتبنى رؤيته، وأبشر بها في كل محل.

التفت إلي بصلف وكبرياء، وقال: إن بقيت تتبع عقلك، فسيحجبك عن الله..

قلت: لا بأس قد رميت عقلي.. فهلم بالدليل من الكتاب؟

قال: الكتاب أعظم من أن يتنزل فهمه على صدرك الممتلئ بالأغيار، والمشحون بالحجب التي تبعده عن الواحد القهار.

قلت: إن لم أرجع للكتاب .. ولا السنة .. ولا العقل.. فلمن أرجع؟

قال: لأهل الله ... العارفين بالله.. أولئك الذين كشفت لهم الأسرار، وزالت عنهم الأغيار.. فشاهدوا الحقائق أوضح من نور النهار.

قلت: لا بأس.. فأسمعني كلامهم.. فلعل فيه من الحجة ما يجعلني أنقاد له.

قال: كلهم متفقون على ذلك .. لقد قال شيخنا عبد الغني النابلسي في شرحه على الفصوص، وفي [الفص الإسماعيلي]: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار انقضى يوم القيامة،

وجاء يوم الخلود كما قال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق:34]، فإذا زال الحجاب بالتجلي على أهل النار، المكنى عنه في الحديث بوضع القدم، والمشار إليه في قوله تعالى: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد:13] الآية، فالباطن الذي فيه الرحمة هو التجلي، والعذاب في الظاهر، فعند ذلك ينقلب العذاب عذوبة لهم مع بقائه كما كان على الأبد، ولهذا قال: (يسمى) أي ذلك العذاب عذاب أهل النار (عذابا) مشتقا (من)العذوبة وهي الحلاوة لأجل (عذوبة طعمه) في أذواقهم وإن بقيت عينه في الظاهر معاقبة وإيجاعا (وذاك) أي ما هو في الظاهر من صورة المعاقبة (له) أي لما في الباطن من اللذة والعذوبة (كالقشر) الذي يكون للبوب والحبوب (والقشر صائن)، أي حافظ ساتر لما في داخله من اللب، وذلك بعد استيفاء مدة ما هم فيه من استيلاء الأوهام على خيالاتهم الفاسدة حتى يتحققوا بالواحد الحق في كل ما التبس عليهم فيه، ويشهدونه في الظواهر والبواطن، ويرجهون إلى ما كانوا فيه من البواطن) [1]

قلت له: هذا كلام خطير، وهو يتنافى تماما مع ما ورد في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة من وصف العذاب والألم والشدة التي يعانيها أهل جهنم، فقد قال تعالى في وصف عذاب أهل النار، وعظم ما هم فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:64-65]، فهل هذه اللعنة التي أخبر الله عن تنزلها عليهم رحمة؟

وقال تعالى في وصف حالهم وألمهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:36-37]، فهل يمكن لمن ينزل فندقا ممتلئا بالعذوبة أن يطلب مغادرته؟

[1] الفصوص (1/333)

وقال تعالى في وصف طعـامهم: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَـامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشـية:6-7]، وقـال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَـا الضـالُّونَ الْمُكَـذِّبُونَ لآكِلُـونَ مِن شَـجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَـالِؤُونَ مِنْهَـا الْبُطُـونَ فَشَـارِبُونَ عَلَيْـهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَـارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُـزُلُهُمْ يَـوْمَ الـدِّينِ﴾ [الواقعـة:51-56]، وقـال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: 12-13]، فهل هـذا وصـف لعـذاب أم لنعمـة؟ وهـل هـو وصـف لسجن ممتلئ بزنزانات التعذيب، أم هو وصـف لفنـادق ممتلئـة باللذة والعذوبة؟

وقال تعالى في وصف آلامهم وصياحهم وعذابهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَـرُوا لَهُمْ نَـارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَـى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُـوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَـذَلِكَ نَجْـزِي كُـلَّ كَفُـورٍ وَهُمْ يَصْـطَرِخُونَ فِيهَـا رَبَّنَـا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَـلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَـذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَـذُوقُوا فَمَـا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِـيرٍ﴾ [فاطر:36-37]، وقال: ﴿ إِنا أَعْتَـدْنَا لِلظـالِمِينَ نَـارًا أَحَـاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْـوِي الْوُجُـوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهـف:29]، فهـل يمكن لمن نـزل الفنادق الممتلئة بالعذوبة أن يندم أو يطلب الخروج منها؟

بعد أن ذكرت له هـذا وغـيره، قـال لي: أنت تقـرأ القـرآن بعقلك، وفي منزلتـك .. لكن عنـدما تـرقى إلى المنـازل العليـا، وتكشـف لـك الحقـائق.. فسـتفهم من هـذه الآيـات الـتي كنت تقرؤها خلاف ما تفهم الآن.

قلت: لا بــأس.. فهــل وصــلت أنت إلى تلــك المحــال، واكتشفت بنفسك تلك الحقائق؟

قال: أنـا لا أحتـاج لكـل ذلـك، فحـبي لأهـل اللـه وأوليائـه، وتصديقي المطلق لهم، يجعلني أرى الحقائق بعيونهم، وأسمعها بآذانهم.. لقد قال الإمام الجنيـد: (لـو علمتُ أن للـه عِلمـاً تحت أديم السَّماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيـه مـع أصـحابنا وإخواننـا، لَسَـعيتُ إليـه وأخذته)، وقـال: (التصـديق بعلمنـا هـذا: ولايَةٌ)، وقال الإمام أبـو عبـد الـرحمن السُّـلمي: (إن الصـوفية:

أمان الله في أرضه، وأخدانُ أسراره وعِلمِه، وصفوته من خلقِه، وهم ممدوحون بلسان النبوة .. فمن أنكر هذا المذهب فلقلة معرفته، وقِلة الاهتداء لحقائقه.. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:11])

قلت له: لا بأس .. أليس الإمام علي من أهل الله، ومن العارفين به؟

غضب، وقال: ومن قال خلاف ذلك.. إننا معشر الصوفية نحب أهل البيت، ونعظمهم، بل إنه لا يوجد في الدنيا من يعظمهم مثلنا، وكل أسانيدنا لمشايخنا ترجع للإمام علي.

قلت: أعرف ذلك منكم، ولكن ليس الشأن في أن تحبه بقلبك، ثم تخالفه بفعلك حتى لا تصير كمن قال فيهم الفرزدق: (قلوبهم معك، وسيوفهم مع بني أمية)

قال: أولئك هم الروافض الكذبة أدعياء محبة أهل البيت.. أما نحن فنحبهم بصدق.

قلت: فقد قال الإمام علي خلاف ما قال أهل الله الذين نسبت لهم تلك الأقوال.. لقد قال مخاطبا أصحابه: (اعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار فارحموا نفوسكم، فإنكم قد جربتموها في مصائب الدنيا، أفرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه، والعثرة تدميه، والرمضاء تحرقه ؟ ! فكيف إذا كان بين طابقين من نار، ضجيع حجر، وقرين شيطان ؟ !) [1]

وقال مخاطبا الأحنف بن قيس: (فلو رأيتهم يا أحنف ! ينحدرون في أوديتها ويصعدون جبالها، وقد ألبسوا المقطعات من القطران، واقرنوا مع فجارها وشياطينها، فإذا استغاثوا بأسوأ أخذ من حريق شدت عليهم عقاربها وحياتها)

قال صاحبي الصوفي: ما ذكرته صحيح..وكلام الإمام علي كان مع العوام، لا مع الخواص.. فهذه العلوم أسرار.. ولا تباح لكل الناس.

---

[1] () نهج البلاغة: الخطبة 183.

قلت: فكيف أباحها هؤلاء ونشروها، ولم يستنوا فيها بسنة إمامهم الذي يزعمون انتسابهم إليه؟

نظر إلي نظرة طويلة تصورت أنه قد رجع فيها للحق، وأعمل فيها عقله وكلام ربه وكلام أهل الله الذي لا يقدم بين يدي الله.. لكني فوجئت به يصيح في وجهي صيحة شديدة، ويقول: لن أجادلك أكثر من هذا.. فأنت محجوب بعقلك.. وأنت أبعد الناس عن معاني أهل الله.. وأنت .. وأنت..

وبقي يردد ذلك، والزبد يتطاير من فمه كما يتطاير من أفواه من نراهم يطلقون على أنفسهم لقب السلفية.

لعل السبب الأكبر في كل الانحرافات الكبرى الـتي وقعت فيها هذه الأمة، وبسببها انحدرت إلى هذه المنحدرات السـحيقة هو الإعـراض عن القـرآن الكـريم.. الإعـراض عن تـدبره.. وعن التفاعل مع مقتضياته.. وعن استنباط سنن الله من خلالـه، كمـا قال تعالى عن أهل الكتاب من قبلنا: ﴿وَلَـوْ أَنَّهُمْ أَقَـامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُـوا مِنْ فَـوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: 66]

ومن أخطر أنواع الإعراض محادة الله في كتابه، والتقـديم بين يديه، ومخالفة مقاصده.. وقـد وقـع هـذا كثـيرا للأسـف في واقعنا التاريخي، كمـا وقـع في واقعنـا الـتراثي، ومن لـدن أكـثر مدارس الأمة، وبأسماء مختلفة.

ومن أخطر تلك التقديمات تقديم فهوم الشيوخ وأوهـامهم على كتاب الله، ونصوصه القطعية الصريحة التي لا تحتمل محلا للجدل.

ومن الأمثلة القريبة على ذلك الموقف من فرعون.. فعنـد تدبر القرآن الكريم نجده يذكر فرعون باعتباره نموذجا للطغيان والعتو في أقصى درجاته.

وكان الأصل في هذه الأمـة، وفي رجـال دينهـا أن يتـدبروا القرآن الكـريم ليستخلصـوا السـنن المرتبطـة بـذلك، ليخلصـوا الأمة من الطغاة الذين انحرفوا بشريعة الله العادلـة، وحرفوهـا لتنسجم مع أهوائهم، لأن قول الله تعالى لموسى عليه السـلام: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه: 24] ليس خاصا بموسـى عليه السلام، بل هو يشمل كل ورثـة الأنبيـاء لينقـذوا الأمـة من هؤلاء الطغاة.

وقد ذكـر القـرآن الكـريم الجـرائم الكـبرى الـتي قـام بهـا فرعون في محال كثيرة منه، ومن ذلك قوله تعالى، وهو يصـور مـدى الكبريـاء والتجـبر والطغيـان الـذي وصـل إليـه فرعـون:

﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) ﴾ [النازعات:21 -24]

ولم يكتف فرعون بتلك الدعاوى، ولا بمجـرد ترديـدها، بـل كان يمارس الطغيان بأبشع صوره، كما قال تعالى يصـور ذلـك: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُـوءَ الْعَـذَابِ يُقَتِّلُـونَ أَبْنَـاءَكُمْ وَيَسْـتَحْيُونَ نِسَـاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: 141]

وفي آية أخرى يصور الجريمة بصورة أبشع: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَـوْنَ يَسُـومُونَكُمْ سُـوءَ الْعَـذَابِ يُـذَبِّحُونَ أَبْنَـاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَـاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقـرة: 49]

ففرعـون وملأه الـذين كـانوا يـأتمرون بـأمره لم يكونـوا يقتلون الأبنـاء فقـط، وإنمـا كـانوا يـذبحونهم، ويعـذبونهم بـذلك الذبح.. ويعذبونهم أكثر عندما يسـتحيون نسـاءهم، ليتنهكـوا من خلالها أعراضهم.. وهل هناك جـرائم أعظم من هـذه الجريمـة.. أن يباد شعب كامل، وأن تنتهك أعراضه.

ولم يكن يكتفي بكل ذلك، بل كـان يقتـل ويعـذب كـل من يقف في وجهه، ولو بكلمة، حـتى لـو كـان من أقـرب المقـربين إليه، وقد ضرب لنا القرآن الكريم نموذجا عن ذلك بما فعله مـع السحرة، كما قال تعالى: ﴿قَـالَ فِرْعَـوْنُ آمَنْتُمْ بِـهِ قَبْـلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْـرٌ مَكَرْتُمُـوهُ فِي الْمَدِينَـةِ لِتُخْرِجُـوا مِنْهَـا أَهْلَهَـا فَسَوْفَ تَعْلَمُـونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْـدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: 123، 124]

ولم يكتف فرعون بذلك كله، بل إنه كان جدارا منيعـا حـال بين المصريين والدخول في دين الله، كما قال تعـالى: ﴿وَأَضَـلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ [طه: 79]

ولنتصور لو أن فرعون آمن، أو تـرك قومـه يؤمنـون كيـف يكون حال المصريين، وكيف سيكون أمر مشروع اللـه لعبـاده.. لكن فرعون وقف في وجه ذلك كله.. ولذلك، ووفق سنن اللـه،

يتحمل جرائر كل ذلك.

بل إنه لم يكتف بأن يكون حجابا بين قومه وبين الإيمان، بل راح، وبعد أن شاهد الآيات العجيبة التي آمن بها السحرة، يحاول أن يفتك بموسى عليه السلام وبني إسرائيل، واستعمل في ذلك كل مكره وكيده كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ [طه: 60]

وحينذاك رأى فرعون معجزة أخرى عظيمة.. لكنه لم يهتم بها، ولم يؤمن، بل كان الكبرياء والطغيان اللذان جثما على صدره حجابا بينه وبين الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ [طه: 78، 79]

هذه بعض المعاني التي ذكرها القرآن الكريم عن فرعون، وهو لذلك لا يختلف في حس المؤمن الذي يعيش القرآن عن إبليس.. فإن كان إبليس قد تكبر عن السجود لآدم، ففرعون كذلك تكبر عن الخضوع والاستسلام لموسى.. وكلاهما منعه الكبر.. وكلاهما يستحق أن يطرد من رحمة الله، كما جرت سنة الله على عباده.

لكن للأسف.. حصل الجدل في التاريخ الإسلامي، وفي التراث الإسلامي حول فرعون.. وهل كان مؤمنا أو غير مؤمن؟

وهذا عجيب جدا، وهو من المحادة لله.. فالله يذكر طغيانه وعتوه وظلمه وجرائمه، لنكتشف منها أسرار كل ذلك، ونحن نتجادل في إيمانه.. ونقدم أقوال المشايخ في ذلك.

وللأسف فإن الشيخ الذي فتح أبواب هذه البدعة هو من يسمونه الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، ونحن مع احترامنا لكل باحث ومحقق إلا أننا لا نرضى أبدا أن يقدم بين يدي كتاب الله، أو يحرف عن معانيه ومقاصده.

وهذا الشيخ للأسف - مع الكثير من المعاني الطيبة التي ذكرها في كتبه - وقع في محادة الله في هذه القضية، وفي

قضايا أخرى كثيرة.

والمتأثرون بـه للأسـف ينصـرفون عن كـل معـاني القـرآن الكـريم، ويأخـذون كلامـه، وكأنـه وحي مـنزل، وهم يقولـون بعصمته، شعروا أو لم يشـعروا، وهم يخطّئـون حينـذاك القـرآن الكريم شعروا أو لم يشعروا.

ومن العجيب أن أتباع هـذا الرجـل في أكـثر المحـال الـتي يناقَشون فيها يردون بكبريـاء على المنكـرين عليهم بـدعوى أن تلـك المعـارف معـارف كشـف وإلهـام، ولا يمكن للعقـل أن يدركها.. ولست أدري هل يمكن للكشف والإلهام أن يتحول إلى عقيـدة؟.. وهـل الكشـف والإلهـام شـأن شخصـي يتذوقـه من عاشه، أم أنه دعوى عريضة يدعيها أي شخص لحصولها لغيره؟

وهـؤلاء الـذين يسـتندون إليـه لا يعلمـون البيئـة الـتي كـان يعيش فيها، والتي أثرت في الكثـير من كشـوفاته، وحولتهـا إلى أداة صادمة للقرآن الكريم.. فقد كان يعيش في الأندلس، وفي بيئـة أثـرت فيهـا الثقافـة الأمويـة، وانتشـرت بينهـا الكثـير من الخرافات والأساطير اليهودية.. وقد دخل ذلك كله إلى التصوف باسم الكشف والإلهام.

ولهـذا نجـده يـدافع عن الفئـة الباغيـة، وينتصـر لمعاويـة، ويسميه خال المؤمنين، وينتصر للكثير من الطغاة عـبر التـاريخ، وينسى جرائمهم، وينسى تحكيم حكم الله فيهم.

وأخطر من ذلك كله هو تهوينه من أمر الإيمان، عندما قال بإيمـان فرعـون، فقـد قـال في ذلـك في الفتوحـات المكيـة: (فقبضَ ـ أي الله سبحانه وتعالى ـ فرعونَ ولم يُـؤخر في أجلـه في حال إيمانه لئلا يرجع إلى ما كـان عليـه من الـدعوى .. فلم يكن عذابه أكثر من غم الماء الأجاج، وقبضه على أحسـن صـفة هذا مـا يعطي ظـاهر اللفـظ وهـذا معـنى قولـه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ [النازعات: 26])[1]

وقـال: (ثم إن اللـه صـدقه في إيمانـه بقولـه ﴿آلْآنَ وَقَـدْ

[1] الفتوحات المكية، ج2، ص: 277.

عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 91] فدل على إخلاصه في إيمانه ولو لم يكن مخلصاً لقال فيه تعالى كما قال في الأعراب الذين قالوا آمنا ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: 14] فقد شهد الله لفرعون بالإيمان وما كان الله ليشهد لأحد بالصدق في توحيده إلا ويجازيه به)[1]

وقد تلقى تلاميذ الشيخ الأكبر هذه الكلمات، كما تلقى تلاميذ شيخ الإسلام كلمات شيخهم، وكأنه وحي منزل لا يصح البحث فيه، ولا التحقيق، حتى لو كان مضادا للقرآن الكريم ومقاصده.

وقد غاب عنهم أن الإيمان ليس المراد به تلك المعرفة الذهنية المحدودة، وإنما هو الإذعان والتسليم لله.. لأن المعرفة وحدها قد تتحقق للكافر، لكنه بجحوده لا يذعن لها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14]

ولذلك فإن لقب الإيمان لقب عظيم لا يستحقه إلا من وفى بحق الإذعان التام، والتسليم المطلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]

بل إن الله تعالى أخبر أن هناك محال لا يقبل فيها الإيمان، لأن الاختبار قد انتهى أجله، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: 158]

وهكذا فإن فرعون بعد أن رأى ما رأى لا ينفعه ذلك، بنص القرآن الكريم نفسه، فالله تعالى أخبر أن موسى عليه السلام

---

[1] الفتوحات المكية (4 ـ72)

دعا عليه وعلى المتكبرين ممن معه، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: 88]

بل أخبر الله تعالى أن هذه سنته في الطغاة، وأنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96، 97]

وهكذا أخبر في آية أخرى، وعن قوم هم أقل بكثير من فرعون، وجرائمهم أقل بكثير من جرائمه، ومع ذلك أخبر الله تعالى أنه لم يرد أن يطهر قلوبهم، لأن الران الذي استولى عليهم حرمهم من هداية الله، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهِ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 41]

ولهذا فإن الإيمان المزعوم لفرعون لا ينفع صاحبه، بل هو معرفة تقام بها الحجة عليه، ولا تنفعه كما يزعم أتباع ابن عربي، الذين لم يكتفوا بما قال شيخهم، بل راحوا يضيفون إليه الكثير من التوابل والمسوغات التي حولت فرعون من عدو من أعداء الله إلى ولي من أوليائه.

ومن العجيب أن الشيخ الأكبر راح يحطم كل معاني العدالة الإلهية ليصور رحمة الله بفرعون، وأنه أسرع بقبض روحه بأحسن حالة، حتى لا يعود إلى كبريائه.. وكأن كل جرائمه التي مارسها لم تكن لتتسبب في الطبع على قلبه والختم عليه.. وكأن الله يدلل بعض عباده، ويعذب بعضهم.

وهذا كله ناتج من تلك الثقافة الإرجائية التي تصورت أن جميع الجرائم التي يقوم بها الطغاة، وكل الدماء التي سالت بسببهم، تمحى عنهم جميعا بمجرد أن يذرفوا بعض الدموع قبل موتهم..

وقد غفلوا عن كون العدالة الإلهية لا يضيع عندها شيء، كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الانبياء:47)

وتناسوا كذلك أن من سنن الله تعالى الطبع على قلوب الذين عتوا وبغوا وطغوا، لأن الإيمان نعمة كبرى، وهي لا يستحقها إلا المتواضعون الطيبون، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:14)

وكما فسر ذلك رسول الله ﷺ ذلك بقوله: (إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول اللّه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾)[1]

ومن العجيب أن هؤلاء الذين يرددون مثل هذا الكلام، ويرددون مثله أن معاوية خال المؤمنين ويدافعون عنه وعن كل الطغاة، ينسون أنهم هم أنفسهم من يقول: (من قال لشيخه لم لا يفلحه أبدا؟)، فيعتبرون مجرد القول بهذا، بل مجرد الهم به سببا في ختم قلب المريد.. ويحكون الحكايات الكثيرة الدالة على ذلك.

فهل مشايخهم أعظم عند الله من موسى والإمام علي اللذين وقف فرعون ومعاوية في وجهيهما، بل حاربا بكل الوسائل مشروعهما الإلهي.

المشكلة الكبرى في هؤلاء أنهم لا يعرفون شيئا اسمه [المشروع الإلهي للإنسان]، والذي يقابله [المشروع الشيطاني] .. ولو أنهم فقهوا هذين المشروعين لفهموا القرآن

[1] رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

الكريم، ولم يقدموا عليه شيئا من أوهام مشايخهم.

لا تتخطوا رقاب الصديقين

على الرغم من أن الصوفية مثلــوا القيم الدينيــة في أرقى صورها فترة طويلــة، بمــا حرصــوا عليــه من الاهتمــام بالســلوك والأخلاق والترقي في معارج القرب والاتصال بالله تعالى..

وعلى الــرغم من أنهم اســتطاعوا أن يمثلــوا الإســلام في الكثير من المجتمعات، بل اســتطاعوا أن يصــلوا بــه إلى أمــاكن كثيرة، لم يكن ليصل إليهــا لــولا جهــودهم وصــدقهم وســماحتهم وأخلاقهم العالية.

على الــرغم من كــل ذلــك إلا أننــا لا نســتطيع أن ننكــر أن الدجل قد ولج إليهم، أو إلى بعضهم، كما ولج إلى سائر طوائف المســلمين، فمــا كــان الشــيطان ليــترك تلــك الثلــة الــتي آمنت بأرقى القيم الدينية لتؤدي رسالتها على هذه الأرض من غير أن يعكر صفوها، ويفسد عليها أمرها، ويدخل فيها ما ليس منها.

والخلــل الأكــبر الــذي أحدثــه الشــيطان في هــذه الطائفــة، والذي لا نزال نراه بين أعيننــا هــو مــا أشــار إليــه الطوســي في اللمع، فقال: (واعلم أن في زماننا هــذا قــد كــثر الخائضــون في علوم هذه الطائفة، وقد كــثر أيضــا المتشــبهون بأهــل التصــوف والمشــيرون إليهــا والمجيبــون عنهــا وعن مســائلها، وكــل واحــد منهم يضيف إلى نفســه كتابــا قــد زخرفــه، وكلامــا ألفــه، وليس بمستحسَن منهم ذلك؛ لأن الأوائل والمشايخ الــذين تكلمــوا في هذه المسائل وأشاروا إلى هذه الإشارات ونطقوا بهــذه الحِكَم، إنمــا تكلمــوا بعــد قطــع العلائــق، وإماتــة النفــوس بالمجاهــدات والرياضات والمنازلات والوجد والاحتراق، والمبــادرة والاشــتياق إلى قطع كل علاقة قطعتهم عن اللــه -عــزَّ وجــلَّ- طرفــة عين، وقــاموا بشــرط العلم، ثم عملــوا بــه، ثم تحققــوا في العمــل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل)[1]

وهو وصــف دقيــق لأولئــك الــذين راحــوا يقــرؤون كتب ابن

---

[1] () اللمع، ص19.

عربي أو الجيلي أو القونوي أو غيرهم من الصـوفية.. وتصـوروا أنهم بقراءتهم لها صاروا محققين، بل أولياء وصديقين، من غـير أن يجهدوا أنفسهم لا برياضة ولا بسلوك ولا بمجاهـدة ولا بـذكر ولا بخلوة، ولا بأي شيء مما كان يمارسـه الصـوفية الصـادقون المحققون.

وليتهم اكتفوا بذلك، بـل راحـوا إلى أعلام الصـوفية الكبـار أمثال أبي حامد الغزالي يسخرون منـه، وينتقصـون من قـدره.. ويقولون عنه: (من دلك على العمل فقد غشك.. ومن دلك على الله، فقد نصحك)

ولم يكتفوا بهذا، بل راحوا يرطنون بالشـطحات، يفسـرون بها القرآن، ويخرجون بها عن ظواهره الواضحة القطعيـة.. كمـا وصفهم بذلك، وبدقة الغزالي، عنـد حديثـه عن الشـطح، فقـال: (وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوي، فان هـذا الكلام يسـتلذه الطبـع، إذ فيـه البطالـة من الأعمـال مـع تزكيـة النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا تعجـز الأغبيـاء عن دعـوى ذلك لأنفسهم، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة)[1]

بل إنه أشار إلى اللغة المستكبرة التي يستعملها هؤلاء مع من ينتقدهم، أو ينصـحهم، فقـال: (ومهمـا أنكـر عليهم ذلـك لم يعجزوا عن أن يقولوا: هذا إنكار مصدره العلم والجـدل، والعلم حجـاب، والجـدل عمـل النفس. وهـذا الحـديث لا يلـوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق)

ثم ذكر الغـزالي مـدى انتشـار هـذه الظـاهرة في عصـره، فقال: (فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شـرره وعظم في العوام ضرره حتى من نطق بشيء منـه فقتلـه أفضـل في دين الله من إحياء عشرة)

ومثله ذكر في رسـالته المعروفـة بـ [أيهـا الولـد المحب]، والتي أشار فيها إلى هـذه الظـاهرة، وقـال: (أيها الولد.. ينبغي

1() إحياء علوم الدين، 1/61.

لك أن يكون قولك وفعلك موافقا للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلال. وينبغي لك ألا تغترّ بشطح الصوفية وطاماتهم؛ لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة، لا بالطامات والترهات. واعلم أن اللسان المطلق والقلب المطبق المملوء بالغفلة والشهوة علامة الشقاوة، حتى لا تقتل النفس بصدق المجاهدة لن يحيى قلبك بأنوار المعرفة)(1)

وقال: (أيها الولد.. لا تكن من الأعمال مفلسا، ولا من الأحوال خاليا، وتيقّن أن العلم المجرد لا يأخذ باليد. مثاله لو كان على رجل في برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعا وأهل حرب، فحمل عليه أسد [عظيم] مهيب، فما ظنّك؟ هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟! ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب. فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها، ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل) (2)

وهو يعود إلى المصادر المقدسة ليؤكد هذا المعنى، فيقول: (أيها الولد.. لو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعدا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم:39]، وقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:110]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 82]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (107)ـ خالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ [الكهف: 107-108]، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا ﴾ [الفرقان:70].. ودليل الأعمال أكثر من أن يحصى، وإن كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله تعالى وكرمه، لكن بعد أن يستعد بطاعته وعبادته؛ لأن رحمة الله قريب من

---

(1) رسالة أيها الولد.

(2) رسالة أيها الولد.

المحسنين) (3)

وما ذكره الغزالي وحذر منه ــ للأسف ــ هـو مـا نـراه في واقعنــا، حيث رغب أمثــال هــؤلاء عن ذلــك التصــوف القيمي الموافق للقرآن الكريم، والذي ذكره الغزالي في [إحيـاء علـوم الدين]، ونقله عن كبار الصوفية ممن سبقوه.

وراحوا إلى تصوف آخر، ابتدعه من يسمونه الشيخ الأكـبر، والممتلئ بالطامات والشطحات العجيبة التي تتناقض تماما مـع كل القيم القرآنية.. بل حتى مع القيم العقلية.

فقد عمد هذا النوع من التصوف إلى قبول كـل الخرافـات والأكاذيث والدجل والأساطير.. وراح يتكلف تأويلها ليجعـل منهـا عقائد مقبولة صحيحة.. لا حـرج على القـائلين بهـا.. بـل الحـرج على المنكرين عليهم.

وراح هذا النـوع من التصـوف إلى تلـك الأسـاطير الفلكيـة التي كان يؤمن بهـا اليونـان والرومـان والبـدائيون، والـتي أثبت العلم الحديث فسادها وبطلانهـا، يقبلونهـا، وينكـرون على العلم الحديث ما قاله.. لأن الأساطير عندهم مصدر للدين، لا يقل عن القرآن نفسه.. بل إن القرآن يؤول لينسجم مع الأساطير.

ولم يكتفوا بهذا.. بل راحوا إلى القيم الدينية نفسها يعبثون بها.. ويصورون أن كل الترهيبات القرآنية لا مبرر لها.. ولا وجود لها في الواقع.. لأن العذاب ليس سوى العذوبة.. والنـار ليسـت سوى النور.

وراحــو إلى من يــذكر لهم أنــه يخــاف من عــذاب اللــه، ويخشى عقابه، يضحكون عليه، ويسـخرون منـه.. ويغفلـون عن أن أكبر أولياء هذه الأمة ـ على حسب ما يؤمنون ـ وهـو الإمـام علي لم تكن تخلو خطبة من خطبه من التحـذير من النـار.. ولم يكن يخلو دعاء من أدعيته من الاستعاذة منها.

فهو الـذي يقـول: (لـو تعلمـون مـا أعلم ممـا طـوي عنكم

3() رسالة أيها الولد.

غيبه، إذا لخرجتم إلى الصعدات تبكون على أعمالكم، وتلتدمون على أنفسكم. ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا خالف عليها، ولهمت كل امرىء منكم نفسه، لا يلتفت إلى غيرها، ولكنكم نسيتم ما ذكرتم، وأمنتم ما حذرتم، فتاه عنكم رأيكم، وتشتت عليكم أمركم)(1)

ويقول في خطبة أخرى: (فاتقوا الله عباد الله تقية ذي لب شغل التفكر قلبه، وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجد غرار نومه، وأظمأ الرجاء هواجر يومه... وقدم الخوف لأمانه، وراقب في يومه غده، ونظر قدما أمامه)(2)

ويقول في وصف أصحاب رسول الله ﷺ: (إذا ذكر الله هملت أعينهم... خوفا من العقاب، ورجاء للثواب)(3)

ويقول في وصف المتقين: (لو لا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقا إلى الثواب، وخوفا من العقاب... فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون.. فإذا مروا بآية فيها تشويق، ركنوا إليها طمعا، وتطلعت نفوسهم إليها شوقا، وظنوا أنها نصب أعينهم. وإذا مروا بآية فيها تخويف، أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم، وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم... قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، ويقول: لقد خولطوا ولقد خالطهم أمر عظيم لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير. فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون... فمن علامة أحدهم... يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل... يبيت حذرا ويصبح فرحا، حذرا لما

1() نهج البلاغة: الخطبة 116.

2() نهج البلاغة: الخطبة 83.

3() نهج البلاغة: الخطبة 97.

حذرا من الغفلة، وفرحا لما أصاب من الفضل والرحمة)(4)

وليس ذلك خاصا بحديثه مع عامة الناس، كما قد يؤوله أمثال هؤلاء.. بل كان مع نفسه.. ومع مناجياته وأدعيته لربه.. فأشهر أدعيته ذلك الذي نقله كميل نجده مملوءا بذكر النار، وخشية الله، ودعاء الله، والتضرع إلى الله.. وليس فيه أي حرف من تلك الطامات التي يجاهر بها من يريدون تخطي رقاب الصديقين.

فمما ورد في دعاء كميل قوله: (اللهم عظم بلائي، وأفرط بي سوء حالي، وقصرت بي أعمالي، وقعدت بي أغلالي وحبسني عن نفعي بعد أملي، وخدعتني الدنيا بغرورها، ونفسي بخيانتها، ومطالي يا سيدي فأسألك بعزتك أن لا يحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي، ولا تفضحني بخفي ما اطلعت عليه من سري، ولا تعاجلني بالعقوبة على ما عملته في خلواتي من سوء فعلي وإساءتي، ودوام تفريطي وجهالتي، وكثرة شهواتي وغفلتي، وكن اللهم بعزتك لي في كل الأحوال رؤوفا، وعلي في جميع الأمور عطوفا. إلهي وربي من لي غيرك أسأله كشف ضري والنظر في أمري. إلهي ومولاي أجريت علي حكما اتبعت فيه هوى نفسي، ولم أحترس فيه من تزيين عدوي، فغرني بما أهوى وأسعده على ذلك القضاء، فتجاوزت بما جرى علي من ذلك بعض حدودك، وخالفت بعض أوامرك، فلك الحمد علي في جميع ذلك ولا حجة لي فيما جرى علي فيه قضاؤك، وألزمني حكمك وبلاؤك، وقد أتيتك يا إلهي بعد تقصيري وإسرافي على نفسي معتذرا نادما منكسرا مستقيلا مستغفرا منيبا مقرا مذعنا معترفا، لا أجد مفرا مما كان مني ولا مفزعا أتوجه إليه في أمري، غير قبولك عذري وإدخالك إياي في سعة من رحمتك. اللهم فاقبل عذري، وارحم شدة ضري وفكني من شد وثاقي، يا رب ارحم ضعف بدني، ورقة جلدي ودقة عظمي، يامن بدأ خلقي وذكري وتربيتي وبري وتغذيتي، هبني لابتداء كرمك وسالف برك بي)

4() نهج البلاغة: الخطبة 193.

وفيه يقول: (إلهي وسيدي وربي، أتراك معذبي بنـارك بعـد توحيـدك، وبعـدما انطـوى عليـه قلـبي من معرفتـك، ولهج بـه لسـاني من ذكـرك، واعتقـده ضـميري من حبـك، وبعـد صـدق اعترافي ودعـائي خاضـعا لربوبيتـك، هيهـات! أنت أكـرم من أن تضيع من ربيته، أو تبعد من أدنيته، أو تشرد من آويته، أو تسـلم إلى البلاء من كفيتـه ورحمتـه، وليت شـعري يـا سـيدي وإلهي ومولاي! أتسلط النار على وجوه خرت لعظمتك سـاجدة، وعلى ألسن نطقت بتوحيدك صـادقة وبشـكرك مادحـة، وعلى قلـوب اعترفت بإلهيتك محققة، وعلى ضمائر حوت من العلم بك حـتى صارت خاشعة، وعلى جوارح سعت إلى أوطان تعبـدك طائعـة، وأشـارت باسـتغفارك مذعنـة؟! مـا هكـذا الظن بـك ولا أخبرنـا بفضلك عنك يا كريم)

إلى آخر الدعاء الممتلئ بكل قيم العبودية.. والمتفق تماما مع ما ذكره القـرآن الكـريم من أدعيـة الصـالحين وأوليـاء اللـه المقربين الـذين وصـفهم اللـه تعـالى، فقـال: ﴿وَعِبَـادُ الـرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًـا وَإِذَا خَـاطَبَهُمُ الْجَـاهِلُونَ قَـالُوا سَـلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُـونَ لِـرَبِّهِمْ سُـجَّدًا وَقِيَامًـا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًـا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66)﴾ [الفرقان: 63 - 66]

لكن كل هذه المعـاني الأخلاقيـة والعرفانيـة ذات المصـادر المعصومة أهيلت عليها كـل ألـوان الحجب والتأويـل والتحريـف الصوفي، حتى أصـبحوا يسـخرون ممن يـذكر النـار وعـذابها، أو يذكر الجنة ونعيمها.. ويتصورون أنهم قد ملكـوا مفـاتيح الوجـود بكلمات حفظوها، وغرور تزينوا به.. مع أن أحدهم قد يقتل أخاه من أجل دينار أو درهم، ثم هو يكذب على نفسـه وعلى النـاس، ويزعم أنه زاهد في الجنة جميعا.. وليته قبل أن يزهد في الجنـة زهد في تلك الدنانير القليلة التي يتكالب عليها.

من المفاهيم التي اختلط فيها الحق بالباطل، والصواب بالخطأ.. وكان لها الأثر السلبي الكبير في انهيار القيم الإسلامية التي جاءت الشريعة لبناء حياة المسلم فردا وجماعة عليها: مفهوم الشفاعة ومجالها..

فمع كون هذا المفهوم مفهوما قرآنيا ورد تفصيله بدقة في آيات كثيرة محكمة واضحة.. إلا أن طوائف الأمة ـ للأسف ـ أعرضت عن ذلك التفسير القرآني، وراحت تفسره بفهمها الخاص، والأخطر من ذلك أنها راحت تستعمله في هدم القيم الإسلامية نفسها.

حيث أصبحت العقيدة في الشفاعة أكبر معول لهدم القيم التي جاء بها رسول الله ﷺ، مثلما كانت عقيدة الفداء التي جاء بها بولس أكبر معول لهدم القيم التي جاء بها المسيح عليه السلام.

ولعل أكبر من شرع هذا النوع من الفهم هو ذلك التراث الحديثي الذي استقبلناه بكل أريحية، ورحنا ننشره تحت مسميات كثيرة .. منها بيان رحمة الله وسعة لطفه بعباده.. ومنها بيان رحمة رسول الله ﷺ التي لا تحد.. ونحن في ذلك لا نختلف عن المسيحيين الذين يذكرون بأن الله ـ لرحمته بعباده ـ أرسل ابنه الوحيد ليصلب، ويكفر بصلبه كل خطايا بني آدم.

نعم نختلف معهم في صورة المشهد.. ولكنا لا نختلف معهم في النتيجة.. فالشيطان في كلا الدينين راح يشرع الخطيئة، وييسر أمرها، بل يدعو إليها.. إما بعقيدة الفداء، أو بعقيدة الشفاعة.

ومن الأمثلة الحديثية التي نراها في تفسير القرآن الكريم الذي يقرؤه العوام والخواص، ويرجع إليه الخطباء ليحضروا خطبهم ودروسهم هذا الحديث، بل هذا المعول الخطير الذي يقضي على كل القيم الإسلامية، وهو ما رواه عبد الرحمن بن

ميمون، أن كعبا دخل يوما على عمر بن الخطاب، فقال له عمر: حدثني إلى ما تنتهي شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة؟ فقال كعب: قد أخبرك الله في القرآن، إن الله يقول: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:42]، فيشفع يومئذ، حتى يبلغ من لم يصل صلاة قط، ولم يطعم مسكينا قط، ومن لم يؤمن ببعث قط، فإذا بلغت هؤلاء لم يبق أحد فيه خير)(1)

فهذا الحديث الذي حدث به كعب الأحبار اليهودي، يفسر به القرآن، ولسنا ندري من أين تلقاه، ولا من أين سمعه، يقضي على كل ما قصدته الآيات الكريمة من التحذير من ترك الصلاة، وترك إطعام المساكين، والخوض مع الخائضين.. وكل القيم المرتبطة بها.

ومثله ما رواه عبد الله بن عمر عن كعب من ذكره: (أن أمة محمد ﷺ ثلاثة أثلاث، فثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة، وثلث يدخلون الجنة بشفاعة أحمد)(2)

وهذا يتفق تماما مع ما ورد في القرآن الكريم من الإخبار عن غرور اليهود وأمانيهم وأكاذيبهم التي حرفوا بها القيم التي جاء بها موسى عليه السلام والأنبياء من بعده، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:80]، وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُون﴾ [آل عمران:24].

والآية الكريمة تشير إلى ما نسميه [دين البشر]، والذي عبرت عنه بـ ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُون﴾، فدين البشر يعتمد على تلك الأكاذيب التي يكذبون بها على أنفسهم، ثم يفرضونها على ربهم، ويتصورون أن الجنة والنار صارت بيدهم، لا بيد ربهم.

1() رواه ابن مردويه، انظر: الدرالمنثور في التفسير للسيوطي ص6، ص286.

2() رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان (20/465).

وما ذكره القرآن الكريم عن اليهود، هو نفسه ما وقـع فيـه النصارى، فقد قـال كعب أحبـارهم: (يـا أولادي أكتب إليكم هـذا لكي لاتخطئـوا وإن أخطـأ أحـدٌ فلنـا شـفيع عنـد الأب، يسـوع المسيح البـار، وهـو كفـارة لخطايانـا. ليس لخطايانـا فقـط بـل لخطايا كل العالم أيضاً) [رسالة يوحنا الرسول الأولى 2: 1)]

وللأسف فإننا عندما نبحث في التراث النصراني لا نجـد إلا نصوصا محدودة جدا من أمثال النص السابق، لكنا عنـدما نبحث في تراثنا الحديثي نجد نصوصا كثيرة جدا، ترفع إلى رسول الله ﷺ، لتناقض كل القيم القرآنية، بل كل القيم التي جـاءت النبـوة لغرسها، والدعوة إليها.

فكيف يستقيم أن يقول النبي ﷺ في بيـان المقصـد الأكـبر من مقاصـد دعوتـه: (إنمـا بعثت لأتمم مكـارم الأخلاق)[1] ، ثم تأتي تلك النصوص لتهدم هذا المقصد من أساسه.

ذلك أنه من المعلوم أن الأخلاق تحتاج في فرضها والدعوة إليها إلى حوافز، تدفع إلى العمل بها، وعقوبات تنفر من الوقوع في أضدادها.. فـإذا مـا رفعت العقوبـات.. ولم تبـق إلا الحـوافز الـتي يسـتوي فيهـا العـاملون والمقصـرون.. حينهـا لن تبقى أي قيمة.. بل لن يبقى أي دين.

فهل يمكن ـ على سبيل المثال ـ أن يستقيم أمر دولة تضع القوانين المشددة للجرائم.. ثم تضع بعدها قانونا واحـدا يقـول: كل العقوبات السابقة ليس لها من مقصد إلا التهديد والوعيـد .. لكنها في الواقع لا أثـر لهـا.. فيمكن لمن اسـتحق العقوبـات أن يأتي بمن شاء ليشفع له.. فإن لم يجد فالحـاكم رحيم وصـاحب قلب طيب.. وسيتولى هو نفسه الشفاعة له.

إن واقع هذه المدينة، وانهيار قيمها يشـبه تمامـا مـا فعلتـه أمثال تلك النصوص..

وتـأملوا معي حـال إنسـان غلبتـه بهيميتـه أو سـبعيته أو

1() رواه أحمد (2/381، رقم 8939) ، وابن سعد (1/192) البيهقى (10/191، رقم 20571)

شيطانه، ثم يدخل المسجد، ويسمع الإمام يردد هذا الحديث الذي لا يعرف عواقبه.. فيذكر ـ وهو يشيد برحمة رسول الله ﷺ ـ أنه أمر أن يؤذن في الناس أنه: (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصاً دخل الجنة)[1]

ويسمع معها أن رسول الله ﷺ قال: (.. فيأتونني، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله، فيقال: يا محمد، ارفع، قل يسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي، ثم أشفع، فيحد لي حدا، فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع يا محمد، قل يسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع، فيحد لي حدا، فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة - قال: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة - فأقول: يا رب، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، أي وجب عليه الخلود)[2]

ويسمع معها أن رسول الله ﷺ قال: (الحاج يشفع فى أربعمائة من أهل بيته ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[3]

ويسمع معها أن رسول الله ﷺ قال: (ما من مسلم يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقوم فى صلاته فيعلم ما يقول إلا انفتل وهو كيوم ولدته أمه من الخطايا ليس عليه ذنب)[4]

ويسمع معها أن رسول الله ﷺ قال: (إذا مرض العبد ثلاثة أيام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[5]

---

[1] مجمع الزوائد:1/16.

[2] رواه البخاري 13 / 395 - 397 ، ومسلم رقم (193)

[3] رواه البزار (8/169، رقم 3196) . قال الهيثمى (3/211).

[4] رواه الحاكم (2/433، رقم 3508)

[5] رواه الطبرانى فى الصغير (1/314، رقم 19)

ويسمع معها ما رواه عقبة بن عامر قال: جئت في اثني عشر راكباً حتى حللنا برسول الله ﷺ فقال أصحابي: من يرعى إبلنا وننطلق فنقتبس من رسول الله ﷺ، فإذا راح اقتبسناه ما سمعنا من رسول الله ﷺ؟ فقلت: أنا، ثم قلت في نفسي: لعلي مغبون، يسمع أصحابي ما لا أسمع من نبي الله ﷺ، فحضرت يوماً فسمعت رجلاً قال: قال رسول الله ﷺ: (من توضأ وضوء كاملاً ثم قام إلى صلاة كان من خطيئته كيوم ولدته أمه)، فتعجبت من ذلك، فقال عمر بن الخطاب: فكيف لو سمعت الكلام الآخر كنت أشد عجباً! فقلت: أردد عليَّ جعلني الله فداءك، فقال عمر بن الخطاب: إن نبي الله ﷺ قال: (من مات لايشرك بالله شيئاً فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء، ولها ثمانية أبواب) (1)

ويسمع معها أن النبي ﷺ قال: (أمر بقوم من أمتي قد أمر بهم إلى النار، قال: فيقولون: يا محمد ننشدك الشفاعة، قال: فآمر الملائكة أن يقفوا بهم، قال: فأنطلق واستأذن على الرب عز وجل فيأذن لي فأسجد وأقول: يا رب قوم من أمتي قد أمر بهم إلى النار، قال: فيقول لي: انطلق فأخرج منهم قال: فانطلق وأخرج منهم من شاء الله أن أخرج..)(2)

ويسمع معها أن النبي ﷺ قال: (فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط) (3)

ويسمع معها ما ورد في حديث الشفاعة الطويل:(يقول اللّه عزَّ وجلَّ ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار)(4) ؛ وفي لفظ آخر:(أدنى

1() رواه الطبراني في الأوسط، وابن عساكر (40/495)

2() رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال.

3() قطعة من حديث مطول أخرجه مسلم ورقمه (183) .

4() رواه البخاري ومسلم.

أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجـون خلقـاً كثيرا)،

ويسمع معها هذا الحديث الذي رواه الشيخان اللذان يحرم نقد حديثهما: (أتانى جبريل فبشـرنى أنـه من مـات من أمتـك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ قـال: وإن زنى وإن سرق)(1)

ويسمع معها هذا الحـديث: (أتـانى جبريـل فخـيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة فـاخترت الشـفاعة وهى لمن شهد أن لا إله الله وأنى رسول الله)(2)

ويسمع معها (أتانى جبريل، فخيرنى بين الشـفاعة وبين أن يغفر لنصف أمتى، فاخترت الشفاعة، فقيـل: اشـفع لنـا فقـال: شفاعتى لكم، فلما أكثروا عليه قال: (من لقى الله يشـهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة)(3)

وكأن جبريل عليه السلام الذي جـاء بهـذا الحـديث يختلـف عن جبريل الذي جاء بـالقرآن الكـريم، والمملـوء بـالترهيب من مخالفة القيم.. والـذي نسـمع فيـه هـذا الوعيـد الشـديد: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِـهِ وَلاَ يَجِـدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ [النساء:123]

بربكم .. من يسـمع كـل هـذا.. كيـف يمكن أن يتغلب على نفسـه الأمـارة بالسـوء، وكيـف يمكنـه أن يحولهـا إلى الصـراط المستقيم.. بل كيف يمكنـه أن يـذرف دمعـة واحـدة من خشـية الله.. وهو يعلم أنه لن يلقى أي عقوبـة، وأن كـل جرائمـه الـتي ارتكبها ستمسح عنه، مثلما مسـحت كـل جـرائم من قتـل مائـة نفس.. وبعـد كـل ذلـك لم تسـتقبله إلا ملائكـة الرحمـة، لتزفـه

1() رواه البخارى (6/2721، رقم 7049) ، ومسلم (1/94، رقم 94)

2() رواه البغوى (3/271رقم 1210) ، وأورده الحافظ فى الإصابة (3/165)

3() رواه أحمد (4/404 رقم 19634) والطبرانى فى الصغير (2/62 رقم 784) قال الهيثمى (10/369) : رواه أحمد والطبرانى، وأحد أسانيد الطبرانى رجاله ثقات.

للرحمة الإلهية.. وتضيع حقوق مائة نفس كاملة جنى عليها، وعلى أهلها.. وتضيع معها كل القيم المرتبطة بالعدالة الإلهية.

هكذا تلاعب الشطان بمفهوم الشفاعة، واستثمرة خير استثمار ليحول منه قنبلة نووية تقضي على كل القيم النبوية.

ولو أن هؤلاء الذين قبلوا تلك الأحاديث، وسلموا لمعانيها، قرأوا معها قوله ﷺ في تلك الشعيرة من الشعائر المقدسة: (أتدرون أى يوم هذا، وأى شهر هذا، وأى بلد هذا؟ قالوا هذا بلد حرام وشهر حرام ويوم حرام قال ألا وإن أموالكم ودماءكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا ألا وإنى فرطكم على الحوض أنتظركم وأكاثر بكم الأمم فلا تسودوا وجهى ألا وقد رأيتمونى وسمعتم منى وستسألون عنى فمن كذب على فليتبوأ مقعده من النار ألا وإنى مستنقذ أناسا ومستنقذ منى أناس فأقول يا رب أصحابى فيقول إنك لا تدرى ما أحدثوا)[1]

وقرأوا معه قوله ﷺ: (يرد علي الحوض ناس من أصحابي، حتى إذا رأيتهم وعرفتهم، اختلجوا دوني، فأقول: يا رب، أصحابي، أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)[2]

فهذا الحديث وهو مروي في جميع الصحاح والمسانيد والسنن يخبر فيه رسول الله ﷺ أنه حرم من الشفاعة في أصحابه الذي عرفهم، وقد كانوا يصلون ويصومون ويتوضأون ويحجون ويمرضون..ومع ذلك لم يخرجوا من ذنوبهم كيوم ولدته أمهاتهم.

هذا ما يتناسب مع ما ورد في القرآن الكريم من أنه لا مجال للتلاعب بالقيم.. وأن الشفاعة فيها لا تجدي.. حتى لو كان رسول الله ﷺ نفسه.. كما قال تعالى في تلك الآيات التي فسرها كعب، وهدم بتفسيره كل القرآن الكريم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ

---

[1] رواه أحمد (5/412، رقم 23544)_ (5/393، رقم 23385) ، والبخارى (5/2404، رقم 6205)، والنسائى فى الكبرى (2/444، رقم 4099).

[2] رواه أحمد 3/140 (12445) والبخاري 8/149 (6582) ومسلم 7/70 (6062)

يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) [المدثر: 38 - 48]

فالآيات الكريمة أخبرت أن الذين لا يصلون .. أي ليس لهم تواصل روحي بالله.. والذين لا يطعمون المسكين .. أي ليس لهم أي تواصل ورحمة بالمجتمع.. هؤلاء وغيرهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين حتى لو تقدموا للشفاعة لهم.

وهكذا نرى القرآن الكريم يحذرنا من ذلك اليوم الخطير الذي لا تنفع فيه أمثال تلك الشفاعات التي تذكرها تلك الروايات، كما قال تعالى: وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ (البقرة: 48)، وقال: مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (غافر: 18)

وهكذا نجد القرآن الكريم يصرح بغضب الله ولعنته وعقابه الشديد على ذنوب كثيرة نراها هينة سهلة عند أولئك الذين ضربوا القرآن بالحديث.. وضربوا الدين وقيمه بما شرعوه لأنفسهم من شرائع الهوى.

فالله تعالى أخبر عن الهمز واللمز وعقوبته، فقال: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ الله الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9) [الهمزة: 1 - 9]

وأخبر عن عقوبة القتل العمد، وأنها الخلود في جهنم، فقال: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93) [النساء: 93]

قارنوا ـ يامن تدافعون على أحاديث الإرجاء ــ هذه الآية الكريمة بحديث الذي قتل مائة نفس.. فهل هانت النفوس لهذه

الدرجة؟ أم أن الأمر خاص بنفوس غير المسلمين؟ أم أن حرمة البخاري ومسلم أعظم عندكم من حرمة ما ورد في القرآن الكريم من معان..

وهكذا لو تأملنا القرآن جميعا.. بل معه الكثير من السنة، لوجدنا فيهما نصوصا كثيرة تملؤنا بالمهابة ومن خشية الله ومن الخوف من تعدي حدود الله، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ الله فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 187]

وكما ورد في الحديث عن عائشة قالت: قلت للنبى ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. ـ قال بعض الرواة: تعنى قصيرة ـ فقال: (لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته)(1)

وكما أورد المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: 9] عن أم العلاء قالت: طار لنا عثمان بن مظعون في السكنى حين اقترعت الانصار على سكنى المهاجرين. فاشتكى فمرضناه حتى توفي، ثم جعلناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، قال: وما يدريك؟ قلت: لا أدري والله، قال: أما هو فقد جاءه اليقين، إني لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري وأنا رسول الله مايفعل بي ولا بكم. قالت أم العلاء: فوالله لا أزكي احدا بعده(2).

وقد ورد في الحديث تصوير لبعض مشاهد العدل في أداء الحقوق لمستحقيها يوم القيامة، وذلك حين سأل رسول الله ﷺ الصحابة، فقال:(أتدرون من المفلس؟)، فقالوا:(المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع)، فقال ﷺ:(إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا

---

(1) أبو داود (4/269، رقم 4875) ، والترمذى (4/660، رقم 2502)

(2) رواه أحمد 6/436 وفي 6/436 والبخاري: 2/91 وفي 3/238 و9/44 .

وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)[1]

فعدالة الله المطلقة تقتضي أن لا يضيع أي حق من الحقوق مهما كان، ولذلك قال ﷺ:(من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)[2]

بل إن النصوص أخبرت بعدالة الله الشاملة للحيوانات حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء [3]، وفي الحديث القدسي عن الجنة، يقول اللّه تعالى:(وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم)[4]، وهو ما ينص عليه قوله تعالى:﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ (طه: 111)

هذه هي الأحاديث التي تتوافق مع القرآن، ومع العقول، ومع الفطرة ومع قيم العدالة الإلهية التي تزن مثاقيل الذر.. وهي التي لا يصح أن يروى غيرها معها، لأن مثل ذلك مثل تلك المرأة التي ذكرها القرآن الكريم، فقال: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:92]

بعد هذا قد يتوهم البعض أننا ننكر الشفاعة، ومعاذ الله أن ننكر شيئا ورد به القرآن الكريم.. فقد قال تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه: 109)، وقال:﴿ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (سبأ:

---

[1] رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.

[2] رواه البخاري.

[3] نص الحديث:(لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

[4] رواه الطبراني.

23)، وقال: ﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (الزخرف:86)

بل إن الفطرة السليمة تدل عليها، فالمحاكمة العادلة تقتضي توفر المحامين الذين يدافعون عن المتهم، وهكذا فإن الله تعالى بعدله نصب المحامين الذين سماهم الشفعاء.. ولكن هؤلاء الشفعاء لا يشفعون إلا فيمن رضي الله أن يشفع فيه، فهناك من الجرائم ما لا يملك معه هؤلاء الشفعاء شيئا.

بالإضافة إلى هذا، فإنا نرى أن الشفاعة هي جزاء خاص بأعمال خاصة.. وهي القرب من الشفيع، وتعظيمه ومحبته.. وبذلك يستقيم الأمر مع العدالة الإلهية.

فالذي عاش حياته كلها محبا لرسول الله ﷺ ذابا عن دينه، حريصا على قيمه.. لكنه ـ كبشر يخطئ ويصيب ـ يقع في بعض الخطايا والهفوات.. التي يحتاج أن يطهر منها.. والتي يستحق العقوبة بسببها.. وهنا تكون الشفاعة.. لا الشفاعة المطلقة.

وهي تشبه في ذلك ذلك التلميذ الذي لا يحول بينه وبين النجاح إلا بعض النقاط القليلة، وحينها قد يتدخل بعض الأساتذة لإنقاذه، فيشفع له، ويزكيه.. لأخلاقه أولا.. ولكون تقصيره محدودا ثانيا.

وهذا المعنى هو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله، فآتيه بوضوئه وبحاجته، فقال لي: اسألني، فقلت: إني أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك، قلت: هو ذاك، قال: (فأعني على نفسك بكثرة السجود)[1]

فالنبي ﷺ طلب أن يعينه على نفسه لتتحقق شفاعته له بمرافقته في الجنة.. فالشفاعة تقتضي الجانبين جميعا الشافع والمشفوع.. بالإضافة إلى أن هذا الرجل لم يطلب شفاعة رسول الله ﷺ بمرافقته في الجنة إلا لحبه الشديد له.. فهو لم يطلب الجنة بذاتها، وإنما طلب مرافقة رسول الله ﷺ فيها.

[1] رواه مسلم (2/52) (489)، وأبو داود رقم (1320) ، و النسائي 2 / 227.

وهكذا ورد في الحديث (يا معشر قريش اشتروا أنفسـكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يـا بـني عبـد منـاف، لا أغـني عنكم من الله شيئا. يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنـك من اللـه شيئا. ويا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئا. ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنـك من الله شيئا)[2]

ولســت أدري كيــف يجتمــع في العقــول هــذه الأحــاديث المتوافقة مع القرآن، مع تلك الأحـاديث المتوافقـة مـع الـتراث اليهودي والمسيحي..

---

[2] () رواه البخاري 8 / 386 ، ومسلم رقم (206)

من الأوهام الخطيرة التي انحرفت بالدين، وبـالقيم النبيلـة التي جـاء لتحقيقهـا على أرض الواقـع، تلـك العنصـرية المقيتـة المتلبسة بلباس الدين، والتي تفرق بين المؤمنين ومكانتهم عند الله تعالى وفي المجتمـع، لا على أسـاس أعمـالهم، وإنمـا على أساس أنسابهم.

وهذا ضرب لكـل النصـوص المقدسـة من القـرآن الكـريم والسنة المطهرة التي تؤكد بمختلف صـيغ التأكيـد على أن اللـه تعالى لا يحـابي أحـدا، وأن مكانـة كـل امـرئ وجـزاءه وعقوبتـه مرتبطة بأعماله، ولا علاقه لها بغير ذلك.

وإلا فإن مخالفة هذا المعنى تضرب مباشرة العدل الإلهي، ومـوازين العدالـة المطلقـة الـتي أقامهـا، والـتي لا يضـيع فيهـا مثاقيل الذر..

وهي تنسخ، بل تحرف كل مـا ورد في القـرآن الكـريم من أمثال قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَـانِيِّكُمْ وَلا أَمَـانِيِّ أَهْـلِ الْكِتَـابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْـزَ بِـهِ وَلاَ يَجِـدْ لَـهُ مِن دُونِ اللّـهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِـيرًا﴾ [النساء:123]، فالآية الكريمة اعتبرت كل ميزان وضـعه البشـر من غير العمل مجرد أمان وأوهام لا علاقة لها بالواقع.

وهكذا تنص الآيات الكريمـة على أن الإنسـان لن يـرى في الآخرة إلا كسبه وعمله إن صالحا، فسيجازى عليـه.. وإن سـيئا، فسيجازى عليه، وفق القوانين الإلهية المرتبطة بالكون جميعـا.. فليس هناك أمة أفضل من أمة، ولا شخص أفضل من شخص.

وقد قال تعالى في تقرير ذلك: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُـونَ فِيـهِ إِلَى اللّـــهِ ثُمَّ تُــوَفَّى كُــلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَــبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُــون﴾ [البقـرة:281]، وقـال: ﴿فَكَيْـفَ إِذَا جَمَعْنَـاهُمْ لِيَـوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيـهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون﴾ [آل عمران:25].

وأعطى القانون المرتبط بذلك، فقال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ

إِلاَّ مَا سَعَى [النجم:39]

بل إنه أعطى نماذج عن ذلـك.. منهـا نمـوذج امـرأتي نـوح ولوط، كما قال تعالى: ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَـا عَنْهُمَـا مِنَ اللــه شَـيْئًا وَقِيـلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَـعَ الـدَّاخِلِين [التحريم:10]

ومنها نموذج ابن نوح عليـه السـلام الـذي عـاتب اللـه فيـه نوحا لكونه أراد التوسط لابنـه، فقـال لـه: يَـانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَـالِحٍ فَلاَ تَسْـأَلْنِ مَـا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِين [هود:46]

وهكذا كان رسول الله ﷺ يخاطب رحمه وقرابته قائلاً: (يـا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شـيئا ، يـا بني عبد مناف لا أغني عنكم من اللـه شـيئا، يـا عبـاس بن عبـد المطلب لا أغــني عنــك من اللــه شــيئاً، ويــا صــفية بنت عبــد المطلب لا أغـني عنـك من اللـه شـيئاً، ويـا فاطمـة بنت محمـد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً)[1]

وقد أخبر ﷺ ـ محذرا ــ بمـا كـان عليـه الأمم السـابقة من التفريق بين الناس على أساس أنسابهم، فقال: (إنّما أهلـك من كان قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحـد، وأيمُ اللـه لـو سـرقت فاطمـة بنت محمد لقطعتُ يدها)[2]

هذه هي القيم الدينيـة المبنيـة على العدالـة، كمـا يصـورها القرآن الكريم، وكمـا تصـورها السـنة المطهـرة، وكمـا يؤكـدها العقل الذي يرى الكون وموازين العدالة العجيبة فيه.

أما الدين البشري، أو الدجل البشري، فقد راح يحرف هـذا المعنى تحريفا شديدا، ملأ بـه المجتمعـات المسـلمة بالعنصـرية

---

[1] () البخاري 2753 و4771 ومسلم 424.

[2] () البخاري 4/213 و5/29 وفي 5/2 ومسلم 5/114.

المقيتة التي أخبر رسول الله ﷺ أنها منتنة، وفوق ذلك شكك بعدالة الله تعالى.. ووضع موازين للقيم لا تتناسب مع الموازين المقدسة.

ومن أمثلة ذلك الدجل ما عبر عنه من يسمونه الشيخ الأكبر ابن عربي بقوله ـ عند الحديث عن آل البيت، وهو يقصد بهم كل منتسب لهم في كل مكان وزمان ـ : (ولما كان رسول الله ﷺ عبدا محضا قد طهره الله وأهل بيته تطهيرا، وأذهب عنهم الرجس، وهو كل ما يشينهم، فإن الرجس هو القذر عند العرب، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:33]،ـ فلا يضاف إليهم إلا مطهر.. وإذا كان لا ينضاف إليهم إلا مطهر مقدس، وحصلت له العناية الإلهية بمجرد الإضافة، فما ظنك بأهل البيت في نفوسهم، فهم المطهرون بل هم عين الطهارة .. فطهر الله سبحانه نبيه ﷺ بالمغفرة فما هو ذنب بالنسبة إلينا لو وقع منه ﷺ لكان ذنبا في الصورة لا في المعنى، لأن الذم لا يلحق به على ذلك من الله ولا منا شرعا، فلو كان حكمه حكم الذنب لصحبة ما يصحب الذنب من المذمة)[1]

ثم راح يطلق أحكامه الجزافية الخطيرة، من غير أن يضع في حسابه أنه قد يتعلق بها ملايين الناس الذين لهم نسبة ما لآل البيت، فقال: (فدخل الشرفاء أولاد فاطمة كلهم، ومن هو من أهل البيت مثل سلمان الفارسي إلى يوم القيامة في حكم هذه الآية من الغفران، فهم المطهرون اختصاصا من الله تعالى، وعناية بهم لشرف محمد ﷺ وعناية الله به، ولا يظهر حكم هذا الشرف لأهل البيت إلا في الدار الآخرة، فإنهم يحشرون مغفورا لهم، وأما في الدنيا فمن أتى منهم حدا أقيم عليه، كالتائب إذا بلغ الحاكم أمره وقد زنى أو سرق أو شرب أقيم عليه الحد مع تحقق المغفرة كما عز وأمثاله ولا يجوز ذمه)[2]

1() الفتوحات المكية، ج1، ص: 196.

2() الفتوحات المكية، ج1، ص: 196.

وهذا حكم خطير جدا، فمن أين علم أن الله سيغفر لهم.. وما حال من وقع منهم في ذنوب متعدية تفتقر لمسامحة الخصوم؟

لكن كل ذلك لم يهتم به، ولا فهم دلالة النص من خلال تفسير رسول الله ﷺ.. فالرسول ﷺ أخبر أن آية التطهير تخص أفرادا محدودين معدودين علم الله صدقهم وإخلاصهم وتفانيهم في خدمة الرسالة.. وأنهم ـ فوق ذلك ـ سيتعرضون لأنواع من البلاء تمحصهم.. وأنهم سيكلفون بمهام كبيرة في هذه الأمة، فلذلك أخبر بطهارتهم، وبالعناية الخاصة بهم.. لا عناية الجزاء، وإنما عناية التربية والتكليف.. فالله لا يحابي أحدا في الجزاء.

والنص الوارد في تفسير الآية الكريمة التي استنتج منها ابن عربي تلك النتائج الخطيرة واضح ووارد في كتب السنة، وأن المراد بهم علي وفاطمة والحسن والحسين.. وحتى أم سلمة مع كونها زوجة رسول الله ﷺ إلا أن رسول الله ﷺ أخبرها أنهم لم تدخل فيهم بنص الحديث.

فعن عمر بن أبي سلمة، ربيب النبي ﷺ، قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:33] في بيت أم سلمة، فدعا النبي ﷺ فاطمة، وحسنا، وحسينا، فجللهم بكساء، وعلي خلف ظهره، فجلله بكساء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا، قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك، وأنت إلى خير)(1)

وفي حديث آخر عن شداد أبي عمار، قال: دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا عليا، فلما قاموا، قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: أتيت فاطمة، رضي الله عنها، أسألها عن علي، قالت: توجه إلى رسول الله ﷺ، فجلست أنتظره، حتى جاء رسول الله ﷺ، ومعه علي وحسن وحسين، رضي الله عنهم، آخذ كل واحد منهما بيده، حتى دخل، فأدنى عليا وفاطمة، فأجلسهما بين

(1) رواه الترمذي (3205 و3787)

يديه، وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه، أو قال: كساء، ثم تلا هذه الآية: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّه لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33]، وقال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق)(1)

وهذا القول من رسول الله ﷺ وغيره ليس محاباة لهؤلاء، وإنما لما كان في قلوبهم من الطهارة والصدق والإخلاص.. فكل ما نالوه من فضل الله إنما كان بسبب كسبهم وعملهم..

فكون الحسنين سيدا شباب أهل الجنة ـ كما أخبر رسول الله ﷺ ـ ليسا لكونهما أحفادا لرسول الله ﷺ، وإنما للأدوار الرسالية الخطيرة التي كلفا بها في هذه الأمة، ونجحا في أدائها أيما نجاح.. وضحيا في سبيل ذلك بكل شيء.

وهكذا تنسجم النصوص مع الوقع مع العقل مع القيم.. أما اعتبار أن كل منتسب لرسول الله ﷺ من قريب أو من بعيد يعطى حصانة خاصة تحميه، فهذا لا ينافي فقط العدالة الإلهية.. بل إنها دعوة للانحراف والضلال والمعصية..

وقد حصل مثل هذا في الأمم السابقة، كما ورد في الإنجيل عن المسيح عليه السلام، وهو يوبخ اليهود الذين راحوا يتيهون على الناس بقرابتهم لإبراهيم، فقال لهم: (يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة. ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم: لنا إبراهيم أبا. لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم) [لوقا: 3/7-8]

ولهذا فإن القرآن الكريم يخبر أن عقوبة الأقرب إلى رسول الله ﷺ أشد من عقوبة غيره في الآخرة، لكونه يتلقى من التوجيه والتربية ما لا يتلقاه غيره، ولكونه يعيش في بيئة أفضل من بيئات غيره، فقال: ﴿يَانِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّه يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:30]، ومضاعفة العذاب هنا واضحة في

(1) رواه أحمد 4/107 (17113)

دلالتها على عذاب الآخرة.. فكيف يجـرؤ بعـدها ابن عـربي على اعتبار المنتسبين لآل البيت معفيين من جرائمهم.

بل إنه لم يكتف بذلك، وإنما راح يعطيهم حصانة من النقد، فقال: (و ينبغي لكل مسلم مـؤمن بالله وبمـا أنزلـه أن يصـدق اللـه تعـالى في قولـه لِيُـذْهِبَ عَنْكُمُ الـرِّجْسَ أَهْـلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً فيعتقد في جميع ما يصدر من أهل البيت إن الله قد عفا عنهم فيه فلا ينبغي لمسـلم أن يلحـق المذمـة بهم، ولا ما يشنأ أعراض من قد شهد الله بتطهـيره وذهـاب الـرجس عنه لا بعمل عملوه ولا بخير قـدموه بـل سـابق عنايـة من اللـه بهم)[1]

بل إنه دعا إلى التنازل لهم عن جرائمهم التي يقعون فيها، والنظر إليها لا على أنها جرائم، وإنمـا على أنهـا مقـادير قـدرها الله، فقال: (إنّه لا ينبغي لمسلم أن يذمّهم بمـا يقـع منـه أصـلاً، فـإنّ اللّـه طهّـرهم، فليعلم الـذامّ لهم أنّ ذلـك راجـع إليـه ولـو ظلمـوه. فـذلك الظلم الـذي هـو في زعمـه ظلم لا في نفس الأمر، يشبه جري المقادير على العبد في ماله ونفسه بغـرق أو حرق، أو غير ذلك من الأمور المهلكة، فيحرق أو يموت لـه أحـد من أحبابه أو يصاب هو في نفسه، وهـذا كلّـه ممّـا لا يوافـق لـه غرضـه، ولا ينبغي أن يـذمّ قـدر اللّـه ولا قضـاءه، بـل ينبغي أن يقابل ذلك بالتسليم والرضا. وإن نزل عن هذه المرتبة فبالصبر، وإن ارتفع عن تلك المرتبة فبالشـكر، فـإن في طيّ ذلـك نعمـاً من اللّه لهذا المصاب، وليس وراء ما ذكرناه خير، فإنّ ما وراءه إلاّ الضجر والسخط وعدم الرضاء وسوء الأدب مع اللّـه تعـالى. فكـذا ينبغي أن يقابـل المسـلم جميـع مـا يطـرأ عليـه من أهـل البيت، في ماله ونفسه وعرضه وأهله وذويه. فيقابـل ذلـك كلّـه بالرضـا والتسـليم والصـبر، ولا يلحـق المذمّـة بهم أصـلاً، وان توجهت عليهم الأحكام المقـرّرة شـرعاً، فـإنّ ذلـك لا يقـدح في هذا، بل يجريه جري المقادير)[2]

---

[1] () الفتوحات المكية، ج1، ص: 197.

[2] () الفتوحات المكية، ج1، ص: 197.

ولست أدري كيف يطالب الناس بالإيمان بعدالة إله يرونـه يفرق بين عبـاده، لا على أسـاس أعمـالهم، وإنمـا على أسـاس أنسابهم.. وهم يقرؤون قوله تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13]

بـل إن ابن عـربي ــ كعادتـه في مـزج الأحكـام بـالرؤى والهواتف ونحوها ـ راح يحكي هذه الرؤيا ـ فقال: (ولقد أخبرني الثقة عندي بمكّة، أنّ شخصاً كان يكره ما يفعله الشرفاء بمكّـة في الناس، فرآى في منامه فاطمـة ابنـة رسـول اللّـه ﷺ، وهي معرضة عنه: فسلّم عليها وسألها عن إعراضها عنه، فقالت لـه: انّـك تقـع في الشـرفاء، قـال: فقلت: يـا سـيّدتي ألا تـرين مـا يفعلونه في النّـاس؟ فقـالت: أليس هم بـنيّ؟ قـال: فقلت لهـا: من الآن تبت إلى اللّه، فأقبلت عليّ وتبسّمت)

ونحب أن نبين أن ابن عربي الذي قـال هـذه الكلمـات في خصوص أحفاد أحفاد آل البيت .. هو نفسـه الـذي وقـف مواليـا ومناصرا ومنافحا عن أعداء أصحاب الكساء أنفسهم، الذين ورد الحديث بخصوصهم.. وهذا من التناقضات العجيبـة الـتي لا تقـل عن تناقضات السلفية.

ولذلك نرى الصـوفية المتـأثرين بهم تتفقـون مـع السـلفية في تبرئة من أخبر رسول الله ﷺ أنـه حـرب عليهم.. يقـول ابن عربي ـ وهو يدافع عن بدع معاوية التي أحـدثها في صـلاة العيـد ـ: (وكذلك ما أحدثه معاوية كاتب رسول الله ﷺ، وصـهره، خـال المؤمنين، فالظن بهم (الصحابة) جميل رضي الله عن جميعهم، ولا سبيل إلى تجريحهم)[1]

وهكذا راح يعتبر المتوكل ـ ذلك الناصبي الذي استعمل كل الوسائل في حرب أهل البيت، بل إنه لشدة حقده عليهم حـرث قبر الإمام الحسين بن علي ـ من الأقطاب المقربين، فقال: (.. ولكن الأقطاب المصطلح على أن يكون لهم هذا الإسم مطلقـاً، من غير إضافة، لا يكون منهم في الزمان إلا واحد. وهـو الغـوث

[1] () الفتوحات المكية ج7 ص458.

أيضاً. وهو من «المقربين». وهو سيد الجماعة في زمانه.. ومنهم من يكون ظاهر الحكم، ويحوز الخلافة الظاهرة، كما حاز الخلافة الباطنة من جهة المقام)([1])

ثم ذكر منهم ـ بثقة عجيبة ـ (معاوية بن يزيد.. وعمر بن عبد العزيز.. والمتوكل)

وهو بذلك يطالب موالاتهم ومحبتهم مثلما طالب بمحبة أهل البيت.. ولست أدري كيف يستقيم في العقل الجمع بين كل هذه المتناقضات؟

مع أنه هو نفسه يقول: (اعلم أنّ من الخيانة لرسول اللّه ﷺ أن تخونه فيما سألك فيه من المودّة لقرابته وأهل بيته، فإنّ من كره أحداً من أهل بيته، فقد كره رسول اللّه ﷺ؛ لأنّ رسول اللّه واحد من أهل البيت، وحبّ أهل البيت لايتبعّض؛ فإنّه ما تعلّق إلاّ بمطلق الأهل لا بواحد بعينه، فاجعله ببالك، واعرف قدر أهل البيت، فمن خان أهل البيت فقد خان رسول اللّه في سننه، ومن خان ما سنّه رسول اللّه فقد خانه)([2])

وقد ذكرني هذا بكلمة سمعتها من بعض ممن يتيهون بنسبهم، فقد قال في حوار من حواراته مع مناظره الذي ساق النصوص التي تتهم معاوية والطلقاء بتحريف الدين، فبدل أن يناقش معه تلك النصوص قال له بكل كبرياء وغرور: أنا من آل البيت.. وجدي هو الإمام علي.. وأنا قد سامحت هؤلاء الطلقاء.. فما شأنك أنت؟

وهكذا أصبح الدين في عرف هؤلاء، وكأنه مرتبط بعواطف عائلة، لا بقيم عادلة..

ونسي هؤلاء كذلك أن فضل أئمة أهل البيت كعلي والحسن والحسين وغيرهم ممن وردت النصوص في مناقبهم، لم ينالوا ذلك بالكسل والدعوى، وإنما بالجهاد والصبر والتضحية

1() الفتوحات المكية، ج2، ص: 8.

2() الفتوحات المكّية: 9: 672.

والتقوى، وكل ما ورد عنهم يدل عليهم.

هذا مجرد نموذج عن الموازين التي أخلت بقيم العدالة القرآنية، وشرعت طبقية جديدة ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد سارت كلمات ابن عربي في الأمة سريان النار بالهشيم.. فراحوا يضيفون إليها، ويؤكدونها بمختلف صنوف التأكيد من الرؤى والهواتف والكشف وغيرها.

وقد وصل بهم الأمر إلى كتابة الرسائل، لا في فضائل أهل البيت الذين احتقروا سلفهم الأول عندما عظموا النواصب.. وإنما بكتابة الرسائل في فضائل عصاة الأشراف.

ومن تلك الرسائل تلك الرسالة المسماة [نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفاء]، والممتلئة بكل أنواع العنصرية المتلبسة بلباس الدين..

فهو لم يكتف بتلك المكانة الخاصة لنسل الحسن والحسين، وإنما راح يضم إليها قريشا وغيرها، بل العرب جميعا، فقد ورد في الرسالة قوله: (أما فضل العرب فإنه منسدل عليهم من أول وجودهم إلى آخرهم .. وهذا مما اتفقت عليه أكابر الفحول من أهل المنقول والمعقول، ولا يخالف فيه إلا حاسد أو جاهل، لأن أجناس الخلق في التفضيل لها دوائر ورتب بحسب الاكتساب والنسب، فأعلاها وأفضلها دائرة سيد الوجود وعلم الشهود ﷺ والتي تليها أفضل من التي تحتها وهكذا إلى الدائرة البعيدة من الدوائر الآدمية وهي أفضل من جميع الدوائر الخلقية)[1]

ثم استنتج من هذه التقريرات الجزافية الخالية من أي حجة هذه المستلزمات العقدية الخطيرة، والتي عبر عنها بقوله: (فإذا فهمت هذا، فاعلم أن العرب أفضل من جميع أولاد آدم، وهم فيما بينهم مراتب في التفضيل كما أشرنا إليه بذكر الدوائر، فالدائرة القرشية أفضل من جميع النسبة العربية، ثم الهاشمية أفضل منها، ثم الفاطمية .. لأن الدوائر أقربها له ﷺ

[1] () نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفاء.

أفضل من البعدي) (1)

وبعد أن قرر هـذا راح يسـتنجد بالنصـوص الـتي لا تعـارض القرآن الكريم فقط، بل تعارض كل القيم.. فمن تلك النصوص، مـا رواه عن سـلمان الفارسـي قـال قـال ﷺ: (يـا سـلمان لا تبغضني فتفارق دينك، قلت: يا رسول اللـه كيـف أبغضـك وبـك هداني الله؟ قال: (تبغض العرب فتبغضني)(2)

ثم علق على هذه الرواية بقولـه: (فجعـل ﷺ بغض العـرب سبباً لبغضه، وسبباً لفراق دين من حل بقلبه هذ الـداء العضـال، والعياذ بالله تعالى نسأل الله السلامة والعافية منه، وقد خاطب سلمان بهذا الخطـاب، وهـو سـيد الفـرس وسـابقهم، وصـاحب الفضـائل الكثـيرة، تنبيهـاوزجراً لغـيره أن يقـع في هـذا الوعيـد الشديد والبلاء الوكيد) (3)

بل إنه راح يمتهن سلمان ويحتقره لكونه من غـير العـرب، متناسيا كل ما ورد في فضله، فقال: (ولم يروا أي فضل كفضل سلمان أو علم كعلمه، ومع ذلك عرفه بمرتبته، ونهـاه أن يـترفع على من فضله الله عليه من غير عمل)

ثم راح يـروي الأكـاذيب عن سـلمان، وأنـه انتفـع بنصـيحة رسول الله ﷺ، وأنه كان يقول بعدها: (نفضلكم يا معشر العرب بتفضيل رسول الله ﷺ إيـاكم، لا ننكح نسـاءكم، ولا نـؤمكم في الصلاة)(4)

ثم علق على هذا النص ـ موجها كلامه لغير العرب ـ بقوله: (وهذا الحديث وحده كاف في هذا الباب لمن كان مشـفقاً على دينه من أبناء العجم، لأنه وإن بلغ ما بلـغ لا يشـم رائحـة لفضـل سلمان وعلمه لأنه من أكـابر الصـحابة، وقـد اتفـق أهـل الحـق

1() نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفاء.

2() رواه الترمذي وغيره.

3() نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفاء.

4() رواه البزار.

على أن القطب من هذه الأمة لا يساوي مرتبة الصحابي الذي قارف الذنوب في الفضل فضلاً عن غيره كما في حديث الاصطفاء) [1]

وهكذا راح يروي الروايات الكثيرة التي لا تختلف عن تلك العنصرية اليهودية المقيتة، فقال: (فإذا فهمت هذا فأي علم لعالم أو فضل لولي يرتفع به على من فضله الله عليه بلا سبب، فاذا فعل فقد أوقع نفسه في العطب، ولتعلم من هذا أن بغض جنس العرب كفر، وسبب للكفر، وأن محبتهم سبب قوة الايمان . وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: (أحبوا العرب وبقاءهم فإن بقاءهم نور في الاسلام) ،وروى الحاكم (حب العرب إيمان وبغضهم كفر، فمن أحب العرب فقد أحبني ومن أبغض العرب فقد ابغضني) .. وقال رسول الله ﷺ: (من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي) [2]

وغيرها من النصوص، وكأن رسول الله ﷺ كان زعيما قوميا، وجاء لينهى أن يغش العرب، ولا مانع من غش من عداهم..وجاء ليحب العجم العرب.. لا لينشر المحبة بين العالم أجمع من غير تفريق بين أنسابهم وألوانهم.

ثم راح يحقق التحقيقات الجليلة ليثبت من خلالها أن الشرف ـ الذي يعطي صاحبه حصانة خاصة ـ ليس خاصا بأبناء الحسن والحسين، فقال: (وعند جهال العامة أن الشرف خاص بأولاد الحسن والحسين ولذلك بيناه بأن المؤمنين من أولاد هاشم كلهم أشراف، ولكن الحسن والحسين أفضل من جميع أهل البيت غير أبيهما علي كرم الله وجهه فإذا فهمت هذا فالآل الذين أمرنا بحبهم وتوقيرهم ومودتهم كل مؤمن من أولاد هاشم، وهم الذين من أسدى إليهم معروفا فيكافئه رسول الله ﷺ) [3]

---

[1] () نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفاء.

[2] () نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفاء.

[3] () نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفاء.

ثم راح يفسر كل النصوص التي تبين المكانة الخاصة لأهل بيت النبوة الذين أنيطت بهم مهمة حفظ الدين، ليطبقها على كل منتسب لأهل البيت، حتى لو كان أبعد الناس عن الدين، فقال تعليقا على قوله ﷺ: (إنما مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا)[1]: (ووجه تسميتهم بالسفينة أن من أجلهم وعظمهم شكراً لنعمة مشرفهم ﷺ، وأخذ بهدي علمائهم نجا من ظلمة المخالفة، ومن تخلف عن ذلك غرق في بحر كفر النعم، وهلك في مفوز الطغيان، ثم أعلم أن نقش الفضل والكمال في حضرة الجلال والجمال هي الحقيقة المحمدية عليها افضل الصلاة وازكى التسليم فلا فضل لمخلوق إلا منها ولا قرب ولا وصل إلا لمن اتصل بها بنسب أو سبب) [2]

وبعد كل هذه الجولة في ضرب المعاني القرآنية.. راح يقرر أن الفضل ليس في العمل والكسب، وإنما في النسب، لأن الأول كسبي، والثاني وهبي، والوهبي أفضل من الكسبي، وقد عبر عن ذلك بقوله: (وبهذا تعلم ان الشرف الذاتي النسبي أعلى وأفضل من الكسبي)

ولم يكتف بهذا، بل راح يخرق حجب الغيب، ليثبت المآل الذي سيؤول إليه هؤلاء الأشراف، ولو من غير عمل، فقال: (الوجه السابع في أحوالهم في المحشر يوم القيامة أنهم لا يقفون في موقف الضيق والأهوال، وإنما يقفون في موضع وحدهم كخاصة الله العليا)[3]

وبعد هذا المجلس الخاص الذي ينزلون فيه، (يبدأ بهم رسول الله ﷺ إذا أذن له في الشفاعة، ثم يذهبون إلى الجنة بعد خلاصهم من التبعات، فمن كانت له حسنات يؤدي منها، ومن لم تكن له أو كانت ولم توف فيخلص عنه ﷺ فإذا فرغ

---

[1] رواه مسلم.

[2] نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفاء.

[3] نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفاء.

منهم اشتغل بأمته) [4]

هـذه مجـرد نمـوذج عن المفـاهيم الـتي حـاربت القيم القرآنية، وحرمت المسلمين من ظل المسـاواة الـتي جـاء بهـا، لتضـعهم في مجتمـع طبقي يـترفع بعضـهم على بعض، ويحتقـر بعضهم بعضا..

وليس الأمر قاصرا عليها، فقد كتب بعضهم رسالة أدبيـة لا تقل خطرا عنها اختار لها هذا العنوان العجيب: (منـار الإشـراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف)

وحسبنا بالعنوان عما ورد في الرسالة.. فهو يحكي كل مـا فيها.. ومن العجيب أن تنهار القيم الإسـلامية إلى الدرجـة الـتي تؤلف فيها الكتب في فضل العصاة.

4() نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفاء.

الشيخ الأكبر .. وشيخ الإسلام .. لقبـان يطلقـان على أكـبر شيخين تستند إليهما الكثير من المواريث الدينية في مجتمعاتنـا الإسلامية..

أما أولهما، فكان لـه تـأثيره الخـاص في البيئـة الصـوفية.. وهو الذي استطاع ـ بنسبة نجـاح معتـبرة ــ تحويلهـا من الرؤيـة القرآنيــة المعتمــدة على المجاهــدات والســلوك التحققي والتخلقي.. مع البعـد عن الشـطحات والطامـات وغيرهـا .. إلى وجهــة أخــرى غارقــة في الأوهــام والــدجل والبعــد عن القيم القرآنية، مع الغوص في أوحال الخرافة والأسـطورة المسـتمدة من كل الملل والنحل.

وأما ثانيهما، فكـان لـه تـأثيرة الخـاص في البيئـة السـلفية والحركية، وهو الذي اسـتطاع ــ بنسـبة نجـاح كبـيرة جـدا ــ أن يحولهــا إلى أداة للتفرقــة والطائفيــة .. بالإضــافة إلى تغــذيتها بالخرافة والأسطورة والوثنية.

ومـع الصـراع الشـديد بينهمـا في الظـاهر إلا أنهمـا ــ في الحقيقة والجوهر ـ يحملان صـبغيات كثـيرة مشـتركة.. فكلاهمـا مصدر للوهم.. وكلاهما انحرف بالفكر والمجتمـع الإسـلامي عن الصورة التي وضعها القرآن الكريم..

والأخطــر من ذلــك أن المتــأثرين بكليهمــا كثــير.. وكلهم يقولـون بعصـمة شـيخهم.. ويقبلـون منـه كـل شـيء.. وبـذلك تحولت كـل الأوهـام الـتي نشـراها في تراثهمـا الضـخم أوهامـا معصومة، يحرم نقدها، لأنها تسـتند إلى الشـيخين المعصـومين: ابن عربي.. وابن تيمية.

ومن أمثلـة ذلـك التقـديس المطلـق لمن يسـمونه الشـيخ الأكبر.. أننا لا نكاد نرى صوفيا من الصوفية المتأخرين إلا ويثـني عليه، بل يعتبره لسان العـارفين، ومحققهم، وأنـه النهايـة الـتي يعودون إليها، بل الختم الذي ختمت به الولاية، وانتهت إليه.

ومن أمثلة تصريحاتهم في ذلك ما عبر عنه ابن حجر الهيتمي الشافعي بقوله: (الذي أثرناه عن أكابر مشايخنا العلماء الحكماء الذين يُستسقى بهم الغيث، وعليهم المعوّل وإليهم المرجع في تحرير الأحكام وبيان الأحوال والمعارف والمقامات والإشارات، أن الشيخ محي الدين بن عربي من أولياء الله العارفين ومن العلماء العاملين، وقد اتفقوا على أنه كان أعلم أهل زمانه، بحيث أنه كان في كل فن متبوعاً لا تابعاً، وأنه في التحقيق والكشف والكلام على الفرق والجمع بحر لا يجارى، وإمام لا يغالط ولا يمارى، وأنه أورع أهل زمانه وألزمهم للسنّة وأعظمهم مجاهدة)(1)

وصرح بذلك ابن كمال باشا، مفتي الدولة العثمانية، فقال: (أيها الناس، اعلموا أن الشيخ الأعظم المقتدى الأكرم قطب العارفين وإمام الموحدين، محمد بن علي بن العربي الطائي الأندلسي، مجتهد كامل ومرشد فاضل، له مناقب عجيبة وخوارق غريبة وتلامذة كثيرة مقبولة عند العلماء والفضلاء، فمن أنكره فقد أخطأ، وإن أصرَّ في إنكاره فقد ضلَّ، يجب على السلطان تأديبه، وعن هذا الاعتقاد تحويله، إذ السلطان مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)(2)

ومنهم عبد الوهاب الشعراني، الذي قال عن الشيخ الأكبر: (إِن الشيخ من كمّل العارفين بإِجماع أهل الطريق، وكان جليس رسول الله ﷺ على الدوام)(3)

وهكذا نجد الثناء العريض على من يسمونه شيخ الإسلام.. وهو ثناء لا يقل عن الثناء الذي وزع لمن يسمونه الشيخ الأكبر..

ومن أمثلة ذلك قول الحافظ عماد الدين الواسطي: (والله ، ثم والله ، لم يُرَ تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية ، علماً ، وعملاً ، وحالاً ، وخلُقاً ، واتِّباعاً ، وكرماً ، وحلْماً ، وقياماً

(1) الفتاوى الحديثية، لابن حجر الهيثمي، ص215..

(2) طبقات المجتهدين.

(3) اليواقيت والجواهر، لعبد الوهاب الشعراني، ج2، ص205..

في حق الله تعالى عند انتهاك حرماته ، أصدق النَّاس عقداً ، وأصحهم علماً وعزماً ، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همةً ، وأسخاهم كفّاً ، وأكملهم اتباعاً لسنَّة محمد ﷺ، ما رأينا في عصرنا هذا مَن تستجلي النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة)[1]

ومثلما رأينا مفتى الدولة العثمانية يتشدد مع المنكرين على من يسمونه الشيخ الأكبر، نجد لجنة الفتوى الدائمة في السعودية تتشدد مع من ينكر على من يسمونه شيخ الإسلام، فقد ورد في بعض فتاواها: (إن الشيخ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية إمام من أئمة أهل السنة والجماعة ، يدعو إلى الحق ، وإلى الطريق المستقيم ، قد نصر الله به السنَّة ، وقمع به أهل البدعة والزيغ ، ومن حكم عليه بغير ذلك : فهو المبتدع ، الضال ، المضل ، قد عميت عليهم الأنباء ، فظنوا الحق باطلاً ، والباطل حقّاً ، يَعرف ذلك من أنار الله بصيرته ، وقرأ كتبه ، وكتب خصومه ، وقارن بين سيرته وسيرتهم ، وهذا خير شاهد وفاصل بين الفريقين)[2]

وهكذا ألفت في كلا الشيخين الكثير من الكتب التي تزرع في أذهان العامة والخاصة تعظيمه وتقديسه وحرمة نقده.. وحرمة التعرض له.

فمن أمثلة ما ألف في الشيخ الأكبر: تنبيه الغبي في تبرئة ابن العربي، لجلال الدين السيوطي .. ومنها الاغتباط بمعالجة ابن الخياط للفيروزآبادي الذي يرد فيه على ابن الخياط ما اتّهم به الشيخ ابن عربي في عقيدته، وله أيضا الرد على المعترضين على الشيخ محيي الدين.. ومنها الرد المتين على منتقص العارف محيى الدين للشيخ عبد الغني النابلسي.. ومنها تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء للشيخ عبد الوهاب

---

[1] العقود الدرية (ص 311).

[2] فتاوى اللجنة الدائمة (2 / 451 ـ 254) بتوقيع: الشيخ عبد العزيز بن باز ، الشيخ عبد الرزاق عفيفي ، الشيخ عبد الله بن غديان ، الشيخ عبد الله بن قعود..

الشعراني، وله أيضا: الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر .. والقول المبين في الرد عن الشيخ محيي الدين.. وغيرها كثير.

أما ما ألف في شيخ الإسلام، فهو لا يعد ولا يحصى.. فكل يوم تصدر دراسة جديدة، ومقال جديد.. ولا نجد إلا من يسبح بحمده، ويقدسه ليل نهار.. ومن أمثلة ما كتب عنه، ما كتبه تلميذه ابن عبدالهادي تحت عنوان: (الصارم المنكي في الرد على السبكي)، وكتابه: (الانتصار في ذكر أحوال قامع المبتدعين وآخر المجتهدين تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية).. ومنها (دعاوى المناوئين لشيخ الأسلام ابن تيمية عرض ونقد) لعبدالله الغصن.. ومنها المقالات السنية في تبرئة شيخ الأسلام ابن تيمية، لعبدالرحمن دمشقية.. ومنها دفع الشبه الغوية عن شيخ الأسلام ابن تيمية لمراد شكري.. وغيرها كثير.

بناء على هذا نحاول هنا ـ باختصار ـ أن نستعرض قاسمين مشتركين كبيرين بينهما، ودورهما في صناعة الوهم في ثقافتنا ومجتمعاتنا الإسلامية لأجيال طويلة.

أما أولهما، فيتعلق بصناعة الوهم المرتبط بالعقائد والأخبار والغيبيات.. وأما الثاني فيرتبط بصناعة الوهم المرتبط بالقيم والسلوك والأخلاق.

أولا ـ الوهم .. والغيب:

وأول تلك القواسم المشتركة وأخطرها هو ذلك التجاسر والجرأة على على عوالم الغيب التي حجبت عنا.. والتي نص القرآن الكريم على أنها ستظل محجوبة إلى أن يكشفها الله لمن شاء من عباده في الوقت الذي يشاء، كما قال تعالى عن مشهد من مشاهد ذلك الكشف: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد﴾ [ق:22]

أما ما عدا ذلك، فإن الله تعالى أخبر أن كل من يزعم شيئا من وصف عالم الغيب من غير الموحى إليهم من المعصومين كذاب ومفتر على الله، قال تعالى:﴿وَمَنْ أَظْلَمُ

مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُون [الأنعام:21]

بل إن الله تعالى قرن ذلك الافتراء بادعاء الوحي، فقال: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُون [الأنعام:93]

وأخبر تعالى أن من يفعل ذلك يقوم ـ شعر أو لم يشعر ـ بعملية تضليل للناس، أو دعاية للوهم، كما قال تعالى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين [الأنعام:144]

هذه نماذج عن الآيات القرآنية الكريمة التي تنهى عن التجاسر على الكلام في عوالم الغيب من دون بينة أو وسائل معصومة تسمح بذلك.

لكن الشيخين اللذين ذكرنا راحا يقحمان أنفسهما في هذه العوالم بجرأة عجيبة.. أما أحدهما فكان يستند فيها للكشف والإلهام.. وأما الثاني فيستند لمن هب ودب من السلف الذين يعتمدهم، ومن التحاليل التي يحللها ليكتشف من خلالها العوالم التي شاء الله أن يخفيها عنا، وأن تظل في غياهب الغيب إلى أن يأذن الله بكشفها.

ومن الأمثلة على ذلك التجاسر على الغيب المرتبطة بمن يسمونه الشيخ الأكبر تلك الدعاوى المرتبطة بتلقيه تلك المعارف من الله تعالى مباشرة، كقوله في [الفتوحات المكيّة] عند حديثه عن مصدر ما ورد فيه من المعارف الكثيرة المرتبطة بعالم الغيب: (فنحن بحمد الله ممن شاء من عباده، فالعلم الإلهي هو الذي كان الله سبحانه معلمه بالإلهام والإلقاء وبإنزال الروح الأمين على قلبه، وهذا الكتاب الفتوحات من ذلك النمط عندنا، فو الله ما كتبت منه حرفا إلا عن إملاء إلهي

وإلقاء رباني، أو نفث روحاني في روع كيانى، هذا جملة الأمر، مع كوننا لسنا برسل مشرعين ولا أنبياء مكلفين، بكسر اللام اسم فاعل، فإن رسالة التشريع ونبوة التكليف قد انقطعت عند رسول الله ﷺ فلا رسول بعده ﷺ ولا نبي يشرع ولا يكلف، وإنما هو علم وحكمة، وفهم عن الله، فيما شرعه على ألسنة رسله وأنبيائه عليهم سلام الله، وما خطه وكتبه في لوح الوجود من حروف العالم وكلمات الحق، فالتنزيل لا ينتهي، بل هو دائم دنيا وآخرة)[1]

وما ذكره الشيخ الأكبر من انقطاع النبوة بعد رسول الله ﷺ كان يقتضي منه التوقف في كل ما يكشف له، أو يلهم به، لأنه لا يدري هل هو كشف صادق، أو كشف مغشوش، وهل هو إلهام صاف، أو أن الشياطين قد أوغلت فيه.. أما أن ينشره، ويزعم صدقه المطلق، فإنه جرأة على مقام النبوة، لأن النبوة هي التبليغ عن الله، والتعريف بعالم الغيب، وما كان لأحد لم يرزقه الله هذا الفضل أن يدعي شيئا.

بل إن الله تعالى، وفي أمور تاريخية بسيطة أخبر رسول الله ﷺ أنه لم يكن ليعلم ذلك لولا وحي الله له، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُون﴾ [آل عمران:44]، وقال له في شأن موسى عليه السلام: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِين﴾ [القصص:44]

لكن ابن عربي يتجاسر على ما هو أعظم من ذلك، فيصور المشاهد الكثيرة التي رآها وسمعها، وكأنها حقائق مطلقة.. ونحن لا ننكر عليه أن يكون من أهل الكشف والشهود، ولا من أهل الإلهام.. ولكنا ننكر عليه أن يسطر ذلك كعقائد تضاف للعقائد التي جاء بها رسول الله ﷺ.

بل إن العقائد التي جاء بها رسول الله ﷺ قليلة جدا مقارنة بتلك العقائد الكثيرة التي أدخلها ابن عربي إلى عقائد

---

[1] () الفتوحات المكية: 2/ 329.

الإسلام.. تحت أي اسم من الأسماء.

وليته تعامل مع تلـك الغيبيـات الكثـيرة الـتي لا يخلـو منهـا كتاب من كتبه مثلما تعامل الغـزالي الـذي كـان شـديد الحـرص على ألا يسطر في كتبه شيئا خـارج النطـاق الـذي سـمحت بـه الشريعة، فقد كان يقول كـل حين مثـل قولـه: (وهـذه الحقـائق داخلــة في علم المكاشــفة ووراءه ســر القــدر الــذي منـع من إفشائه فلنقصر عن ذكره)[1]

لكن هذا الموقـف الـورع من الغـزالي لم يـرض أتبـاع ابن عربي، ربما لأنهم شـديدو الفضـول، وربمـا يريـدون أن يكشـف لهم ما كشف له من غير ممارسة رياضة ولا مجاهدة.

ولست أدري كيف يسمون أنفسهم بعـد ذلـك صـوفية، مـع أن الصوفي هو الذي جاهد وسلك ووصل إلى الفتح الحقيقي، لا الفتح الذي ينقله عن غيره تقليدا.

والمشكلة التي ورثها ابن عربي لأتباعه في هذا المجال هو أنه تركهم بدل التجـرد والتحقـق والسـلوك يبحثـون في عـوالم الغيب المجهولة، ويريدون التعرف على أسرارها بعيدا عن أنوار العصمة، وبعيدا عن مناهج البحث العلمي التي أتاحها الله لنا.

وقــد أشــار ابن خلــدون إلى هــذه الوجهــة الــتي توجههــا الصوفية ـ بتأثير كبير من ابن عربي ـ فقال: (وربّمـا قصـد بعض المصـنّفين ذلـك في كشـف الموجـودات وتـرتيب حقائقـه على طريق أهل المظاهر فأتى بالأغمض فالأغمض بالنّسبة إلى أهــل النّظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغانيّ شـارح قصـيدة ابن الفارض في الدّيباجة الّتي كتبها في صدر ذلك الشّرح، فإنّـه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه أنّ الوجود كلّه صـادر عن صفة الوحدانيّة الّتي هي مظهر الأحديّة وهمـا معـا صـادران عن الذّات الكريمة الّتي هي عين الوحدة لا غير. ويسـمّون هـذا الصّـدور بـالتّجلّي. وأوّل مـراتب التّجليّـات عنـدهم تجلّي الـذّات على نفسه وهو يتضمّن الكمال بإفاضة الإيجاد والظّهور .. وهـذا

---

[1] إحياء علوم الدين (2/ 25)

الكمال في الإيجاد المتنزّل في الوجـود وتفصـيل الحقـائق وهـو عندهم عـالم المعـاني والحضـرة الكماليّـة والحقيقـة المحمّديّـة وفيها حقائق الصّفات واللّـوح والقلم وحقـائق الأنبيـاء والرّسـل أجمعين والكمّل من أهـل الملّـة المحمّديّـة. وهـذا كلّـه تفصـيل الحقيقة المحمّديّة. ويصدر عن هذه الحقائق حقـائق أخـرى في الحضرة الهبائيّة وهي مرتبة المثال ثمّ عنها العرش ثمّ الكرسيّ ثمّ الأفلاك، ثمّ عالم العناصر، ثمّ عالم التّـركيب. هـذا في عـالم الرّتق فإذا تجلّت فهي في عالم الفتـق. ويسـمّى هـذا المـذهب مـذهب أهـل التّجلّي والمظـاهر والحضـرات وهـو كلام لا يقتـدر أهل النّظر إلى تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقـه وبعـد مـا بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدّليل)(1)

ولم يتوقف أمر الشيخ الأكبر عنـد هـذا الحـد، بـل راح إلى الحقائق الكبرى التي جاء بها القـرآن الكـريم حـول اللـه تعـالى يشكك فيها، ومن أهمها، وهو أساسها وركنها الركين تنزيـه اللـه تعالى، فالله تعالى كما تنص النصوص المقدسـة، بـل كمـا ينص أولياء هذه الأمـة الكبـار لا يمكن أن يشـبه خلقـه بـأي وجـه من الوجوه، فمعرفته هي معرفة التنزيه المطلق.. لكن ابن عربي ـ مثله مثل ابن تيمية ـ ينكر هذا النوع من المعرفة.

ومن أمثلـة ذلـك مـا عـبر عنـه بقولـه في الفص الهـاروني عندما راح يدافع عن عبادة العجل، ويعتبره مظهـرا من مظـاهر عبادة الله تعـالى: (فكـان موسـى أعلم بـالأمر من هـارون لأنـه علم ما عبده أصحاب العجل ، لعلمه بأن الله قد قضـى ألا يُعبـد إلا اياه: وما حكم الله بشيء إلا وقع. فكـان عتب موسـى أخـاه هارون لما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه. فإنَّ العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء، فكان موسـى يربي هارون تربية علم وإن كان أصغر منه في السن)(2)

وهكـذا راح يحـرف معـنى قولـه تعـالى: ﴿وَقَضَـى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُــدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإســراء:23] من القضــاء التشــريعي إلى

(1) مقدمة ابن خلدون (1/ 617)

(2) فصوص الحكم 1/ 192.

القضاء التكويني المحتوم.. والـذي يجعـل من كـل تلـك الأوثـان والأصنام والآلهة التي اخترعها الإنسان، أو ضلله بها الشيطان .. كلها عبادة لله تعالى.

ولو أنه تأمل في الآيـة تـأملا بسـيطا لوجـد فيهـا خلاف مـا اعتقد.. فقد أخبر الله تعالى أنه قضى على عباده ألا يعبـدوا إلا إياه.. وقضى كذلك ـ حسبما تنص الآية الكريمة ـ على الإحسـان للوالــدين، كمــا قــال تعــالى: ﴿وَقَضَــى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُــدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسـراء:23]، .. وعلى مقتضـى قولـه في حتمية القضاء يكون كل تصرف مع الوالدين إحسانا.. سواء كان برا بهما، أو عقوقا لهما.

بل إنه صـرح في الفص النـوحي بمـا هـو أخطـر من ذلـك، فقــال: (التنزيــه عنــد أهــل الحقــائق في الجنــاب الإلهي عين التحديد والتقييـد. فـالمنزه إمـا جاهـل وإمـا صـاحب سـوء أدب. ولكن إذا أطلقاه وقـالا بـه، فالقائـل بالشـرائع المـؤمن إذا نـزه ووقف عند التنزيـه ولم يَـرَ غـير ذلـك فقـد أسـاء الأدب وأكـذب الحقَّ والرسلَ صلوات الله عليهم وهو لا يشعر، ويتخيل أنـه في الحاصل وهو من الفائت. وهو كمن آمن ببعض وكَفَـرَ ببعض، ولا سيما وقد علم أنَّ أَلْسِـنَةَ الشـرائع الإلهيـة إذا نطقت في الحـق تعالى بما نطقت إنما جاءت به في العموم على المفهوم الأول، وعلى الخصوص على كل مفهـوم يفهم من وجـوه ذلـك اللفـظ بأي لسان كان في وضع ذلك اللسان. فإن للحق في كـل خلـق ظهوراً: فهو الظاهر في كل مفهوم، وهـو البـاطن عن كـل فهم إلا عن فهم من قـال إن العـالم صـورته وهويتـه: وهـو الاسـم الظاهر، كما أنه بالمعنى روح ما ظهر، فهو الباطن. فنسبته لمـا ظهر من صور العالم نسبة الـروح المـدبِّر للصـورة. فيؤخـذ في حد الإنسان مثلًا ظـاهره وباطنـه، وكـذلك كـل محـدود. فـالحق محدود بكل حد، وصور العالم لا تنضـبط ولا يحـاط بهـا ولا تعلم حدود كـل صـورة منهـا إلا على قـدر مـا حصـل لكـل عـالم من صورته)[1]

---

[1] جواهر النصوص فى شرح الفصوص، ج 1، ص: 178.

وبناء على هذا وضع ابن عربي وأتباعه عقيدة خاصة باللـه، ممتلئة بالغيبيات التي لا دليل عليها لا من الكتاب ولا من السـنة ولا من العقل.. فإن سئلوا عن دليلها ذكروا أنـه الكشـف.. فـإن سئلوا: هـل كشـف لكم أنتم هـذه المعـاني.. أم أنكم تلقيتموهـا تقليدا؟.. وطبعا جوابهم هـو ذلـك التقـديس الـذي يولـونهم لمن يسمونه الشيخ الأكبر، فأصبح كلامـه نصـا مقدسـا لا يحتـاج إلى براهين تثبته.

ومـا ذكرنـاه هـو جـزء بسـيط من جـرأة ابن عـربي على الغيبيات، وإلا فإن كل كتبه تتناول هذه الغيبيات بطريقة عجيبـة، فهـو يتقبـل كـل مـا ورد في الروايـات من النصـوص من غـير تمحيص ولا تحقيـق في سـندها، ثم يـذكر ثبوتهـا عن طريـق الكشف.

ومن أمثلة ذلك قوله في الفتوحات، وهـو يتحـدث عن بـدء الخلق: (.. فخلق الماء- سـبحانه- بـردة جامـدة، كـالجوهرة في الاسـتدارة والبيـاض. وأودع فيهـا بـالقوة ذوات الأجسـام وذوات الأعراض، ثم خلق العرش واستوى عليه اسم الـرحمن. ونصـب الكرسـي، وتـدلت إليـه القـدمان. فنظـر بعين الجلال إلى تلـك الجـوهرة، فـذابت حيـاء، وتحللت أجزاؤهـا فسـالت مـاء. وكـان عرشه على ذلك المـاء قبـل وجـود الأرض والسـماء. وليس في الوجود، إذ ذاك، إلا حقائق المستوي عليه والمستوي والاستواء. فأرسل النفس، فتموج الماء من زعزعـه وأزبـد، وصـوت بحمـد الحمد المحمود الحق، عنـد مـا ضـرب بسـاحل العـرش، فـاهتز الساق وقال له: أنا أحمد! فخجـل المـاء، ورجـع القهقـرى يريـد ثبجه، وترك زبده بالساحل الذي أنتجه. فهو مخضة ذلـك المـاء، الحـاوي على أكـثر الأشـياء. فأنشـأ- سـبحانه- من ذلـك الزبـد، الأرض، مسـتديرة النشـء، مدحيـة الطـول والعـرض. ثم أنشـا الدخان من نار احتكاك الأرض عند فتقها. ففتق فيـه السـماوات العلى، وجعله محل الأنوار ومنازل الملأ الأعلى. وقابل بنجومهـا المزينة لها النيرات، ما زين الأرض من أزهار النبات)[1]

---

[1] () الفتوحات المكية ، ج 1، ص: 49.

وخير تعليق على هذه الجرأة على عالم الغيب، وبدأ الخلق قوله تعالى: ﴿مَـا أَشْـهَدتُّهُمْ خَلْـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْـقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف:51]

ومن أمثلة تلك الجـرأة الخطـيرة على عـالم الغيب قولـه: (وأما أسرار أهل الإلهام المستدلين فلا تتجـاوز سـدرة المنتهى، فان إليها تنتهي أعمال بنى آدم. ونهاية كل أمر، إلى ما منه بـدأ. فان قال لك عارف، ممن لا علم لـه بهـذا الأمـر: (إن الكرسـي موضع القدمين)، فقل له: (ذلك عالم الخلـق والأمـر، والتكليـف إنما انقسم من السدرة، فإنه قطع أربـع مـراتب، والسـدرة هي المرتبة الخامسـة (للوجـود). فـنزل (الحكم الشـرعي) من قلم (عقل كلى)، إلى لـوح (نفس كليـة)، إلى عـرش (طبيعـة كليـة) إلى كرسى (هيولى، هباء، مادة كلية)، الى سـدرة (جسـم كلى) [1]

ثم ذكر كيف تنزلت الأحكـام الشـرعية من هـذه المـراتب، فقال: (فظهـر الـواجب من القلم. وظهـر المنـدوب من اللـوح، وظهـر المحظـور من العـرش. وظهـر المكـروه من الكرسـي. وظهر المباح من السدرة. و المباح قسم (أي حظ) النفس)

ثم راح يذكر محـال صـعود الأعمـال، فقـال: (وإذا ظهـرت قسمة الاحكـام الشـرعية من السـدرة، فـإذا صـعدت الأعمـال، التي لا تخلو من أحد هـذه الأحكـام، لا بـد أن تكـون نهايتهـا إلى الموضع الذي منه ظهرت، إذ لا تعـرف من كونهـا منقسـمة إلى السدرة. ثم يكون من العقل، الذي هو القلم، نظر إلى الأعمـال المفروضة، فيمدها بحسب ما يرى فيها. ويكون من اللـوح نظـر إلى الأعمال المندوب إليها، فيمدها بحسب ما يرى فيها. ويكون من العرش نظر إلى المحظورات- وهـو (أي العـرش) مسـتوى الرحمن- فلا ينظرها إلا بعين الرحمة، ولهذا يكون مآل أصـحابها إلى الرحمة، ويكون من الكرسي نظر إلى الأعمـال المكروهـة، فينظر إليها بحسب ما يرى فيها. وهو (أي الكرسي) تحت حيطة العرش، والعرش مستوى الرحمن. والكرسي، موضع القـدمين.

---

[1] () الفتوحات المكية، ج4، ص: 326.

فيسرع العفو والتجاوز عن أصحاب المكروه من الأعمال. ولهذا يؤجر تاركها، ولا يؤاخذ فاعلها)(1)

بل إن كشفه امتد إلى جهنم، فراح يصـفها بدقـة بأوصـاف لم ترد في النصوص المقدسة، فقال: (وأوجدها الله [أي جهنم] بطالع الثور، ولذلك كان خلقها، في الصـورة، صـورة الجـاموس سواء. هذا الذي يعول عليه عندنا. وبهذه الصورة رآها أبو الحكم بين برجـان في كشـفه. وقـد تمثـل لبعض النـاس، من أهـل الكشـف، في صـورة حيـة. فيتخيـل أن تلـك الصـورة هي الـتي خلقها الله عليها، كأبي القاسـم بن قسـى وأمثالـه، ولمـا خلقهـا الله تعالى، كان زحل في الثـور، وكـانت الشـمس والأحمـر في القوس، وكان سائر الدراري في الجدي. وخلقها الله تعـالى من تجلى قولـه، في حـديث مسـلم: (جعت فلم تطعمـني! وظمئت فلم تسقني! ومرضت فلم تعدني! وهذا أعظم نزول نزله الحق إلى عبـاده في اللطـف بهم، فمن هـذه الحقيقـة خلقت جهنم. أعاذنا اللَّه، وإياكم، منها! فلذلك تجبرت على الجبابرة، وقصمت المتكبرين)(2)

ويتحدث عن المأدبة المعدة لأهل الجنـة، والمندبـة المعـدة لأهل النار، فيقول: (في ذلك الوقت يجتمع أهل النار في مندبة. فأهل الجنة في المآدب. وأهل النار في المنادب. وطعـامهم في تلك المأدبة زيادة كبد النون. وأرض الميدان درمكة بيضاء، مثـل القرصة. ويخرج من الثور الطحال لأهل النار. فيأكل أهل الجنـة من زيادة كبد النون. وهو حيوان بحرى مائي. فهو عنصر الحيـاة المناسـبة للجنـة. والكبـد بيت الـدم. وهـو بيت الحيـاة. والحيـاة حارة رطبة. وبخار ذلـك الـدم هـو النفس، المعـبر عنـه بـالروح الحيواني، الذي به حيـاة البـدن. فهـو بشـارة لأهـل الجنـة ببقـاء الحيـاة عليهم. وأمـا الطحـال في جسـم الحيـوان، فهـو بيت الأوساخ، فان فيه تجتمع أوساخ البدن، وهو ما يعطيه الكبـد من الدم الفاسد. فيعطى لأهل النار يأكلونه. وهو من الثـور. والثـور

1() الفتوحات المكية، ج4، ص: 327.

2() الفتوحات المكية، ج4، ص: 370

حيــوان تــرابى، طبعــه الــبرد واليبس. وجهنم على صــورة الجاموس. والطحال من الثور، لغذاء أهل النـار، أشـد مناسـبة: فبما في الطحال من الدمية، لا يموت أهل النـار، وبمـا فيـه من أوساخ البدن ومن الدم الفاسـد المـؤلم، لا يحيـون ولا ينعمـون. فيورثهم أكله سقما ومرضا)(1)

ويتحدث عن عدد درجات الجنة، فيقـول: (فتحـوى درجـات الجنة من الدرج فيها على خمسة آلاف درج ومائة درج وخمسـة أدراج لا غير. وقد تزيد على هذا العدد بلا شك. ولكن ذكرنا منها مـا اتفـق عليـه أهـل الكشـف، ممـا يجـرى مجـرى الأنـواع من الأجناس. والذي اختصـت بـه هـذه الأمـة المحمديـة على سـائر الأمم، من هذه الأدراج، اثنا عشر درجا لا غـير، لا يشـاركها فيهـا أحـد من الأمم. كمـا فضـل ﷺ غـيره من الرسـل، في الآخـرة، بالوسيلة وفتح باب الشفاعة، وفي الـدنيا بسـت لم يعطهـا نـبى قبلــه كمــا ورد في الحــديث الصــحيح، من حــديث مســلم بن الحجاج. فـذكر منهـا: عمـوم رسـالته، وتحليـل الغنـائم، والنصـر بـالرعب، وجعلت لـه الأرض كلهـا مسـجدا، وجعلت تربتهـا لـه طهورا، وأعطى مفاتيح خزائن الأرض)(2)

هذه بعض مظاهر جرأة الشيخ الأكـبر على عـوالم الغيب.. أما جرأة من يسمونه شيخ الإسلام، فهي لا تقل عنها.. والفــرق بينهما أن الأول يسـتند للكشـف والإلهـام، والثـاني يسـتند لكـل المجسمة والمشبهة يهودا كانوا أو مسلمين، معصومين كانوا أو غير معصومين، وقد ضربنا الأمثلة الكثـيرة على ذلـك في كتابنـا [شيخ الإسلام في قفص الاتهام]، ولذلك سنكتفي هنـا بالإشـارة إلى بعض ما ذكره في رسالته العرشية.. واسم الرسالة نفسـها يـدل على تلـك الجـرأة على عـالم الغيب.. فاللــه تعـالى ذكـر العرش في القرآن الكريم.. وذكر ارتباطه بعظمتــه.. ولم يــذكر شيئا من أوصافه، لعدم طاقـة العقـول ذلـك.. وليبقى يمـد ذهن المــؤمن بالشــعور بــالعجز عن تحديــد عظمــة اللــه أو تقييــدها

(1) الفتوحات المكية، ج4، ص: 479.

(2) الفتوحات المكية، ج5، ص: 73.

بالأوصاف.

لكن ابن تيمية راح يفصل فيـه بحسـب معارفـة الفيزيائيـة البسـيطة الـتي لا تعـدو مـا يـراه ويعيشـه في هـذا العـالم من ظواهر وقوانين، وكأن قـدرة اللـه محكومـة بهـذه القـوانين، ولا تقدر على مجاوزتها.. فقد قال يتحدث عنـه في المقـام الثـالث: (لا يخلو إما أن يكون العرش كريا كالأفلاك، ويكون محيطـا بهـا، وإمـا أن يكـون فوقهـا وليس هـو كريـا، فـإن كـان الأول، فمن المعلوم باتفاق من يعلم هذا أن الأفلاك مستديرة كرية الشكل، وأن الجهة العليا هي جهـة المحيـط، وهي المحـدب، وأن الجهـة السفلى هـو المركـز، وليس للأفلاك إلا جهتـان: العلـو والسـفل فقط.. وأما الجهات الست فهي الحيوان، فإن له ست جــوانب، يـؤم جهـة فتكـون أمامـه، ويخلـف أخـرى فتكـون خلفـه، وجهـة تحاذي يمينه، وجهة تحاذي شماله، وجهـة تحـاذي رأسـه، وجهـة تحـاذي رجليـه، وليس لهـذه الجهـات السـت في نفسـها صـفة لازمة، بل هي بحسب النسـبة والإضـافة، فيكـون يمين هـذا مـا يكون شمال هذا، ويكون أمام هذا ما يكـون خلـف هـذا، ويكـون فوق هذا ما يكون تحت هذا. لكن جهة العلو والسـفل للأفلاك لا تتغـير، فالمحيـط هـو العلـو والمركـز هـو السـفل، مـع أن وجـه الأرض التي وضعها الله للأنام، وأرساها بالجبال، هو الـذي عليـه الناس والبهائم والشجر والنبات، والجبال والأنهار الجارية.. فأما الناحية الأخرى من الأرض فالبحر محيط بها، وليس هناك شـيء من الآدميين وما يتبعهم، ولو قدر أن هناك أحدا لكان على ظهر الأرض ولم يكن من في هـذه الجهـة تحت من في هـذه الجهـة، ولا من في هــذه تحت من في هــذه، كمــا أن الأفلاك محيطــة بــالمركز، وليس أحــد جــانبي الفلــك تحت الآخــر، ولا القطب الشمالي تحت الجنوبي، ولا بـالعكس.. وإن كـان الشـمالي هـو الظاهر لنا فوق الأرض وارتفاعـه بحسـب بعـد النـاس عن خـط الاستواء، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلا كـان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة، وهو الذي يسمى عرض البلد، فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها وجوانب الفلك المسـتديرة ليس بعضها فوق بعض ولا تحته، فكـذلك من يكـون على الأرض من الحيوان والنبات والأثقال لا يقال: إنه تحت أولئك، وإنما هذا

خيال يتخيله الإنسان، وهو تحت إضافي؛ كما لو كانت نملة تمشي تحت سقف فالسقف فوقها، وإن كانت رجلاها تحاذيه) [1]

إلى آخر كلامه الطويل، والذي يحاول أن يبين مكان العرش في نفس الوقت الذي يقع فيه في أخطاء جغرافية وفلكية بسيطة تتعلق بالأرض التي يعيش عليها، والتي يعرفها أبسط الصبيان في عصرنا.

فهو يزعم أن البشر لا يعيشون إلا في الجزء العلوي من الكرة الأرضية.. وأن الجزء السفلي منها بحر محيط.. وأنها ثابتة.. وأن العرش يحاذيها من جهة العلو.. إلى آخر أوهامه التي لا يزال يتلقاها أتباعه بالقبول، وكأنها وحي يوحى.

ثم راح يطرح تساؤلا عجيبا، لم يكن في حاجة لطرحه، وهو عن سر التوجه في الدعاء إلى جهة العلو.. وكان يمكنه أن يجيب عنه بأجوبة كثيرة، أسهلها أن هذا من العبادات، وأنه غير معقول المعنى.. أو أن يذكر بأن السماء قبلة الدعاء كما أن الكعبة قبلة الصلاة.. أو أن يقول غير ذلك.

لكنه ـ مثله مثل الشيخ الأكبر ـ راح يجيب بالأوهام، ليحول الحقائق إلى أوهام، فيقول: (فيقال له: هذا السؤال إنما ورد لتوهم المتوهم أن نصف الفلك يكون تحت الأرض، وتحت ما على وجه الأرض من الآدميين والبهائم، وهذا غلط عظيم، فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة لكان تحتها من كل جهة، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض مطلقا، وهذا قلب للحقائق، إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقا. أهل الهيئة يقولون: لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية أرجلنا وألقي في الخرق شيء ثقيل كالحجر ونحوه لكان ينتهي إلى المركز، حتى لو ألقي من تلك الناحية حجر آخر لالتقيا جميعا في المركز، ولو قدر أن إنسانين التقيا في المركز بدل الحجرين لالتقت رجلاهما ولم يكن أحدهما تحت صاحبه، بل كلاهما فوق المركز، وكلاهما تحت الفلك، كالمشرق والمغرب، فإنه لو قدر أن رجلا بالمشرق في

---

[1] الرسالة العرشية: 21.

السماء أو الأرض ورجلا بالمغرب في السماء أو الأرض، لم يكن أحدهما تحت الآخر، وسواء كان رأسه أو رجلاه أو بطنه أو ظهره أو جانبه مما يلي السماء أو مما يلي الأرض، وإذا كان مطلوب أحدهما ما فوق الفلك لم يطلبه إلا من الجهة العليا، لم يطلبه من جهة رجليه أو يمينه أو يساره لوجهين: أحدهما: أن مطلوبه من الجهة العليا أقرب إليه من جميع الجهات، فلو قدر رجل أو ملك يصعد إلى السماء، أو إلى ما فوق، كان صعوده مما يلي رأسه أقرب إذا أمكنه ذلك، ولا يقول عاقل: إنه يخرق الأرض ثم يصعد من تلك الناحية، ولا أنه يذهب يمينا أو شمالا، أو أماما أو خلفا، إلى حيث أمكن من الأرض ثم يصعد؛ لأنه أي مكان ذهب إليه كان بمنزلة مكانه أو هو دونه، وكان الفلك فوقه، فيكون ذهابه إلى الجهات الخمس تطويلا وتعبا من غير فائدة. ولو أن رجلا أراد أن يخاطب الشمس والقمر فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا، مع أن الشمس والقمر قد تشرق وقد تغرب، فتنحرف عن سمت الرأس، فكيف بمن هو فوق كل شيء دائما لا يأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى؟)(1)

إلى آخر كلامه الطويل الذي يتناقض مع أبسط مبادئ الفلك والجغرافيا وكل العلوم.. ولهذا نرى أتباعه إلى الآن يبغضون العلوم الحديثة وينفرون منها، لأنها كشفت الكثير من الأوهام التي تعلق بها شيخهم شيخ الإسلام.

هذا مجرد مثال، ومن شاء تفاصيل أكثر، فليطالع هذه الرسالة، أو فليسلمها لباحث محايد ليكشف له مقادير التضليل الموجودة فيها، والتي على أساسها وضح الشيخ خارطة الكون.. وهو لا يعرف خارطة الأرض..

ولعل تلك الأفكار التي كان ينشرها هو وأمثاله عن كون ما يسميه الجزء السفلي من الأرض مجرد بحر محيط، وليس فيه كائنات، هو الذي حال بين المسلمين وبين اكتشاف الكثير من اليابسة، ليكتشفها غيرهم، ويستفيد منها سواهم.. ويبقى المسلمون ضحايا الأوهام التي وضعها من نصبوهم أندادا من

---

(1) الرسالة العرشية: 23.

دون الله.

ثانيا ـ الوهم .. والقيم:

عند النظر إلى القيم التي بثها القرآن الكريم، أو السنة المطهرة، أو ورثة النبوة المكتفين بمعينها الصافي، ونقارنها بما بثه ونشره كلا الشيخين ابن عربي وابن تيمية نجد فروقا كبيرة جدا.

فالقيم القرآنية والنبوية تضع صورة مميزة جميلة للشخصية المسلمة تمتلئ بكل القيم النبيلة.. فهم ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ ﴾ [التوبة:112]، وهم المخبتون ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون﴾ [الحج:35]، وهم ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) ﴾ [الفرقان: 63 - 67]، وغير ذلك من الأوصاف الكثيرة المذكورة في القرآن الكريم، ومثلها في السنة المطهرة، ومثلها في كلمات أولياء الله من ورثة النبوة.

لكنا إن رجعنا إلى ذينك الشيخين نجد صورة أخرى للشخصية المسلمة، تختلف عن تلك الصورة القرآنية والنبوية.

أما من يسمونه شيخ الإسلام، فقد صور الشخصية المسلمة بصورة العنيف المتشدد الإرهابي الذي يهجر كل من يخالفه، ويعبس في وجهه، ويتحين أي فرصة لقتله.

ومن أمثلة ذلك قوله ـ وهو يضع قواعد التعامل مع المبتدعة، والذين يشملون عنده كل المسلمين المخالفين لهم ـ: (فإن الدعاة إلى البدع لا تُقبل شهادتهم، ولا يُصلى خلفهم، ولا يؤخذ عنهم العلم، ولا يُناكَحون، فهذه عقوبة لهم حتى ينتهوا،

ولهـذا يفرّقـون بين الداعيـة وغـير الداعيـة، لأن الداعيـة أظهـر المنكرات فاستحق العقوبة، بخــلاف الكــاتم)(1)

وقال في [الفتاوى الكبرى]: (والداعي إلى البدعة مستحق العقوبة باتفاق المسلمين، وعقوبته تكون تارة بالقتل، وتارة بما دونـه، كمـا قتـل السـلف جهم بن صـفوان، والجعـد بن درهم، وغيلان القدري، وغيرهم، ولو قـدر أنـه لا يسـتحق العقوبـة أو لا يمكن عقوبته فلا بد من بيان بدعته والتحذير منها، فإن هـذا من جملة الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر الـذي أمـر اللـه بـه ورسوله)(2)

ثم بين نوع البدع التي يقتـل على أساسـها هـذا النـوع من الناس، فقال: (والبدعة التي يعد بها الرجل من أهل الأهـواء مـا اشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتها للكتـاب والسـنة: كبدعـة الخـوارج، والـروافض، والقدريـة، والمرجئـة، فـإن عبـد اللـه بن المبـارك، ويوسـف بن أسـباط، وغيرهمـا قـالوا: أصـول اثنـتين وســبعين فرقــة هي أربــع. الخــوارج، والــروافض، والقدريــة، والمرجئة. قيل لابن المبارك: فالجهمية؟ قـال: ليسـت الجهميـة من أمة محمد. والجهمية نفاة الصفات الـذين يقولـون: القـرآن مخلوق، وأن الله لا يـرى في الآخـرة، وأن محمـدا لم يعـرج بـه إلى الله، وأن الله لا علم له ولا قدرة ولا حياة، ونحـو ذلـك كمـا يقوله المعتزلة والمتفلسفة ومن اتبعهم) (3)

وهذا الوصف ينطبق على جميع المدارس العقدية مـا عـدا المدرسة التي ينتمي إليها ابن تيمية.

وهكذا أفـتى بقتـل كـل من يقـول بخلـق القـرآن أو بخلـق لفظـه.. وهـو مـا تقـول بـه جميـع المـدارس العقديـة مـا عـدا المدرسة السلفية، فقد سئل في رجـل قـال: (إن اللـه لم يكلم موســى تكليمــا. وإنمــا خلــق الكلام والصــوت في الشــجرة،

1() مجموع الفتاوى (28/ 205)

2() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (4/ 194).

3() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (4/ 194).

وموسى عليه السلام سمع من الشجرة، لا من الله، وإن الله عز وجل لم يكلم جبريل بالقرآن، وإنما أخذه من اللوح المحفوظ، فهل هو على الصواب أم لا؟)(1)

فأجاب بقوله: (ليس هذا الصواب، بل هو ضال مفتر كاذب باتفاق الأمة وأئمتها. بل هو كافر يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وإذا قال: لا أكذب بلفظ القرآن وهو قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164] بل أقر بأن هذا اللفظ حق، لكن أنفي معناه وحقيقته، فإن هؤلاء هم الجهمية الذين اتفق السلف والأئمة على أنهم من شر أهل الأهواء والبدع، حتى أخرجهم كثير من الأئمة عن الاثنين وسبعين فرقة، وأول من قال هذه المقالة في الإسلام كان يقال له: جعد بن درهم، فضحى به خالد بن عبد الله القسري يوم أضحى، فإنه خطب الناس فقال في خطبته: ضحوا أيها الناس يقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه وكان ذلك في زمن التابعين، فشكروا ذلك) (2)

وقال: (.. وقال عبد الله بن المبارك - الذي أجمعت فرق الأمة على إمامته وجلالته حتى قيل: إنه أمير المؤمنين في كل شيء. وقيل: ما أخرجت خراسان مثل ابن المبارك وقد أخذ عن عامة علماء وقته: مثل الثوري ومالك وأبي حنيفة والأوزاعي وطبقتهم - قيل له: بماذا نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه. وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة - الملقب إمام الأئمة وهو ممن يعرج أصحاب الشافعي بما ينصره من مذهبه ويكاد يقال: ليس فيهم أعلم بذلك منه -: من لم يقل: إن الله فوق سمواته على عرشه باين من خلقه: وجب أن يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه وألقي على مزبلة؛ لئلا يتأذى بنتن ريحه أهل الملة ولا أهل الذمة وكان ماله فيئا) (3)

1() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 29)

2() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 29)

أما من يسمونه الشيخ الأكبر، والذي قد يظن أنه ــ بسبب صوفيته ــ أكثر تسامحا مع المخالف، فليس كذلك.. أو ليس كذلك في كل الأحيان، فمواريث السلفية التي استفادها من البيئة التي عاش فيها كانت تطعم كشفه كل حين بما يناسبها.

ومن أمثلة ذلك موقفه من الشيعة الذين كانوا يشكلون في عصره جزءا من البيئة الإسلامية، فقد كان يمكنه أن يلاحظ القواسم المشتركة بينهم وبين سائر المسلمين، وكان يمكنه أن يرجع لكتبهم ليعرف حقائهم وأسرارهم، وكان يمكنه أن يتعامل معهم بمثل تلك السماحة التي تعامل بها مع أصحاب الأديان المختلفة، بل مع فرعون نفسه، لكنه لم يفعل، واكتفى بالمعارف العامية البسيطة عنهم، وبما يغذيه به الكشف الذي لم يكن يعطيه إلا ما تعطيه البيئة التي عاش فيها.

ومن أمثلة ذلك نقله لما يقوله خصومهم من أنهم يقولون بأن الأحق بالنبوة هو علي، لا رسول الله ﷺ، فقال ـ عند كلامه على أهل البدع والأهواء ــ : (إن الشياطين ألقت إليهم أصلاً صحيحاً لا يشكون فيه، ثم طرأت عليهم التلبيسات من عدم الفهم حتى ضلوا، فينسب ذلك إلى الشيطان بحكم الأصل، ولو علموا أن الشيطان في تلك المسألة تلميذ لهم يتعلم منهم، وأكثر ما ظهر ذلك في الشيعة، ولا سيما في الإمامية منهم، فدخلت عليهم شياطين الجن أولاً بحب أهل البيت، واستفراغ الحب فيهم، ورأوا أن ذلك من أسنى القربات إلى الله - وكذلك هو لو وقفوا ولا يزيدون عليه - إلا أنهم تعدوا في حب أهل البيت إلى طريقين: منهم من تعدى إلى بغض الصحابة وسبهم حيث لم يقدموهم، وتخيلوا أن أهل البيت أولى بهذه المناصب الدنيوية، فكان منهم ما قد عـُرِف واستفاض، وطائفة زادت إلى سب الصحابة القدح في رسول الله ﷺ وفي جبريل عليه السلام، وفي الله جل جلاله، حيث لم ينصوا على رتبتهم وتقديمهم في الخلافة للناس، حتى أنشد بعضهم: ما كان مَنْ بعث الأمين أميناً، وهذا كله واقع من أصل صحيح، وهو حب أهل

---

[3]() مجموع الفتاوى (33/ 179)

البيت، أنتج في نظرهم فاسداً، فضلوا وأضلوا)(1)

وهذا كلام من لا يعرف الشيعة، ولم يطلـع على كتبهـا، ولا كلام أعلامها، وإنمـا هـو كلام عـامي بسـيط، يكتفي بسـماع مـا يقوله الخصوم.

وهو لم يكتف بذلك، وإنمـا راح للكشـف يسـتعمله لضـرب هذه الطائفة المحترمة من طوائف الأمـة، فقـد قـال في تعـداد أصـناف الأوليـاء في هـذه الأمـة: (ومنهم- رضـى اللـه عنهم- الرجـبيون. وهم أربعـون نفسـا في كـل زمـان، لا يزيـدون ولا ينقصون. وهم رجال حالهم القيام بعظمة الله. وهم من الافراد. وهم أرباب القول الثقيل، من قولـه تعـالى: ﴿إِنَّا سَـنُلْقِي عَلَيْـكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: 5]، وسموا رجبيون لأن حال هـذا المقـام لا يكـون لهم إلا في شـهر رجب، من أول اسـتهلال هلالـه إلى انفصاله، ثم يفقدون ذلـك الحـال من أنفسـهم، فلا يجدونـه إلى دخول رجب، من السنة الآتية. وقليل من يعرفهم من أهـل هـذا الطريق. وهم متفرقون في البلاد، ويعرف بعضـهم بعضـا. منهم من يكـون بـاليمن وبالشـام وبـديار بكـر. لقيت واحـدا منهم بدنيسير. من ديـار بكـر، مـا رأيت منهم غـيره، وكنت بالأشـواق إلى رؤيتهم. ومنهم من يبقى عليه، في سائر السنة، أمر ما مما كـان يكاشـف بـه في حالـه في رجب، ومنهم من لا يبقى عليـه شيء من ذلك)(2)

وبعد كل هـذه الـدعاوى العريضـة الـتي لا دليـل عليهـا من الكتاب أو السنة أو العقل راح يقحم طائفيته في ولايتهم، فقال: (وكـان هـذا الـذي رأيتـه (في دنيسـير) قـد أبقى عليـه كشـف الروافض، من أهل الشيعة، سائر السنة. فكـان يـراهم خنـازير. فيأتي الرجل المستور، الذي لا يعـرف منـه هـذا المـذهب قـط- وهو في نفسه مؤمن به، يدين به ربه. فـإذا مـر عليـه يـراه في صورة خنزير، فيستدعيه ويقول له: (تب إلى الله! فإنك شـيعى رافضى)، فيبقى الآخر متعجبـا من ذلـك. فـان تـاب وصـدق في

1() الفتوحات المكية: 1 /282..

2() الفتوحات المكية، 11/ 286.

توبته، رآه إنسانا، وإن قال له بلسانه: تبت! ـ وهو يضمر مذهبه ـ لا يزال يراه خنزيرا. فيقول له: (كذبت في قولك تبت!) وإذا صدق، يقول له: (صدقت)- فيعرف ذلك الرجل صدقه في كشفه. فيرجع عن مذهبه ذلك الرافضي)[1] ثم راح يذكر مثالا واقعيا عن هذا الولي العجيب الذي يشق على سرائر الخلق، ويمتحنهم، وكأنه إله متجبر، لا ولي متواضع، فقال: (ولقد جرى لهذا مثل هذا مع رجلين عاقلين، من أهل العدالة من الشافعية، ما عرف منهما قط التشيع، ولم يكونا من بيت التشيع. غير أنهما أداهما إليه نظرهما. وكانا متمكنين من عقولهما، فلم يظهرا ذلك و أصرا عليه بينهما وبين الله. فكانا يعتقدان السوء في أبى بكر وعمر، ويتغالون في على. فلما مرا به ودخلا عليه، أمر باخراجهما من عنده. فان الله كشف له عن بواطنهما في صورة خنازير، وهي العلامة التي جعل الله له في أهل هذا المذهب. وكانا قد علما من نفوسهما أن أحدا من أهل الأرض ما اطلع على حالهما. وكانا شاهدين عدلين، مشهورين بالسنة. فقالا له في ذلك. فقال: (أراكما خنزيرين، وهي علامة بينى وبين الله فيمن كان مذهبه هذا)، فأضمرا التوبة في نفوسهما، فقال لهما: (إنكما، الساعة، قد رجعتما عن ذلك المذهب فانى أراكما إنسانين) فتعجبا من ذلك، وتابا إلى الله)[2]

ثم ذكر من أوصاف هؤلاء الأولياء الطائفيين أنهم (أول يوم يكون في رجب، يجدون كأنما أطبقت عليهم السماء. فيجدون من الثقل بحيث لا يقدرون على أن يطرفوا، ولا تتحرك فيهم جارحة، ويضطجعون فلا يقدرون على حركة أصلا، ولا قيام ولا قعود ولا حركة يد ولا رجل ولا جفن عين. يبقى ذلك عليهم أول يوم، ثم يخف في ثانى يوم قليلا، وفي ثالث يوم يكون أقل. وتقع لهم الكشوفات والتجليات والاضطلاع على المغيبات. ولا يزال (أحدهم) مضطجعا مسجى، يتكلم بعد الثلاث أو اليومين ويتكلم معه، ويقول ويقال له، إلى أن يكمل الشهر. فإذا فرغ الشهر ودخل شعبان، قام كأنما نشط من عقال. فان كان

1() الفتوحات المكية، ج11، ص: 286.

2() الفتوحات المكية، ج11، ص: 288.

صاحب صناعة أو تجارة اشتغل بشغله، وسلب عنه جميع حاله كله إلا من شاء الله أن يبقى عليه من ذلك شيء أبقاه الله عليه.- هذا حالهم. وهو حال غريب، مجهول السبب. والذي اجتمعت به منهم كان في شهر رجب، وكان في هذه الحال)[1]

هذا مثال عن نموذج من نماذج الأولياء الذين ذكرهم ابن عربي، ومثلهم كثير ممن ذكرهم بأعدادهم وأوصافهم وأعمالهم من غير أي بينة سوى الكشف..

فمن أولياء هذه الأمة ـ كما يذكر ابن عربي ــ (الأقطاب)، (وهم الجامعون للأحوال والمقامات بالأصالة أو بالنيابة.. ولا يكون منهم في الزمان إلا واحد. وهو الغوث أيضا. وهو من المقربين.. وهو سيد الجماعة في زمانه. ومنهم من يكون ظاهر الحكم، ويجوز الخلافة الظاهرة كما حاز الخلافة الباطنة من جهة المقام: كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، والحسن، ومعاوية بن يزيد، وعمر بن عبد العزيز، والمتوكل. ومنهم من له الخلافة الباطنة خاصة، ولا حكم له في الظاهر: كأحمد بن هارون الرشيد السبتي، وكأبي يزيد البسطامي)[2]

وهكذا استطاع ابن عربي أن يحول من المتوكل المستبد الظالم الناصبي صاحب الجرائم الكثيرة ليس مؤمنا عاديا فقط، بل وليا من أولياء الله.. بل قطبا من الأقطاب الكبار المقربين.. وكل ذلك بدليل واحد لا يستطيع أحد مهما كان أن يحاجج به، وهو الكشف.

ومن أولياء هذه الأمة ـ كما يذكر ابن عربي ـ (الأئمة)،وهم ـ كما يذكر ـ (لا يزيدون في كل زمان على اثنين لا ثالث لهما. الواحد (عبد الرب)، والآخر (عبد الملك).. وهما اللذان يخلفان القطب إذا مات.. وهما للقطب بمنزلة الوزيرين، الواحد منهم مقصور على مشاهدة عالم الملكوت، والآخر مع عالم الملك)[3]

1() الفتوحات المكية، ج11، ص: 289.

2() الفتوحات المكية، ج11، ص: 275.

ومنهم ـ كما يذكر ابن عـربي ــ (الأوتـاد)، (وهم أربعـة في كـل زمـان، لا يزيـدون ولا ينقصـون. رأينـا منهم شخصـا بمدينـة فاس، يقال له: ابن جعدون. كان ينخل الحنـاء بـالأجرة. الواحـد منهم يحفظ الله به المشرق، وولايته فيه، والآخـر (يحفـظ اللـه به) المغرب، والآخـر الجنـوب، والآخـر الشـمال. والتقسـيم من الكعبة. وهؤلاء قد يعبر عنهم بالجبال)(1)

ومنهم (رجال الماء) وهم ــ كمـا يـذكر ابن عـربي ــ (قـوم يعبـدون اللّٰه في قعـور البحـار والأنهـار، لا يعلم بهم كـل أحـد. أخبرنى أبو البدر التماشكى البغدادي- وكان صدوقا، ثقة، عارفـا بما ينقل، ضابطا حافظا لما ينقـل- عن الشـيخ أبى السـعود بن الشبل، إمام وقته في الطريق، قال: كنت بشاطئ دجلة بغـداد، فخطر في نفسى: هل لله عبـاد يعبدونـه في المـاء؟ قـال: فمـا استتممت الخـاطر إلا وإذا بـالنهر قـد انفلـق عن رجـل، فسـلم على وقال: نعم يا أبا السعود! لله رجال يعبدون الله في المـاء، وأنا منهم! أنا رجل تكريت، وقد خرجت منها لأنه بعد كـذا وكـذا يوما، يقع فيها كذا وكـذا- يـذكر أمـرا يحـدث فيهـا. ثم غـاب في الماء. فلمـا انقضـت خمسـة عشـر يومـا وقـع ذلـك الأمـر على صورة ما ذكره ذلك الرجـل لأبى السـعود، وأعلمـنى بـالأمر مـا كان)(2)

وهكــذا يســتمر ابن عــربي في ذكــر الأوليــاء وأنــواعهم وأوصافهم ومهامهم.. لا المرتبطة بهدايـة الخلـق، والـدعوة إلى الصراط المستقيم وخلافة النبوة.. وإنما يضـع لهم مهـام غريبـة جدا، لم يدل عليها لا الكتاب ولا السنة ولا العقل.

وبــذلك تحـولت الولايــة من التحقــق والتخلــق بالمعــاني القرآنية إلى معان جديدة مملوءة بالألغاز..

وقد كان لهذا الطرح والتشويه لقيمة الولاية أثـره الخطـير

3() الفتوحات المكية، ج11، ص: 276.

1() الفتوحات المكية، ج11، ص: 277.

2() الفتوحات المكية، ج11، ص: 357.

في واقعنـــا وتراثنـــا، حيث أصـــبح وســـيلة من وســـائل النصـــب والاحتيال بأسماء مختلفة، كلها تعـود إلى ذلـك المـوروث الـذي وضـــع في محـــل العصـــمة والقداســـة، فلا ينقـــد، ولا يطـــالب بتصحيحه.. والويل لمن يفعل ذلك.

من الأساليب التي كان يستعملها المشركون لصرف الناس عن دعوة رسول الله ﷺ ـ كما يذكر القرآن الكريم ـ محاولة تصدير أكبر كم من المعارف المختلطة بالأوهام، لينصرف الناس عن وحي رب العالمين إلى الوحي المضمخ بوساوس الشياطين.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من أنواع التضليل، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان:6]

وأشار إلى تلك التصرفات التي كان يمارسها أعداء الدين حينما كانوا يلجأون إلى إثارة الشغب، ونشر كل ألوان اللغو، لينصرف الناس عن سماع الهدى الإلهي الصافي، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:26]

وهكذا، فإن الشيطان الذي لا يحزنه شيء كما يحزنه هدي الله الممتلئ بالصفاء والطهارة، راح يستعمل كل الوسائل ليكدر ذلك الصفاء، وليضيف لتلك المنابع الطاهرة ما ينجسها ويشوهها ويحرفها، بل ويحولها إلى سموم قاتلة لا إلى هدي تحيا به الأرواح وتطهر وتزكو.

ومن هذا الباب راح إلى ما جبل عليه الإنسان من شوق للتعرف على أسرار الأشياء وحقائقها، ليستخدمه لإفراز ما يريده من تشويه وتحريف للدين، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا، فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:169].

وعلمنا كيف نواجهه، فقال: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولا﴾ [الإسراء:36]، فهذه الآية الكريمة تنهى أن نبحث في شيء لم تكتمل لدينا أدواته.. لا في أمور الدنيا، ولا في أمور الآخرة.. إلا

إذا استندنا إلى المصادر المعصومة في ذلك، مع الاكتفاء بها.

وهكــذا ورد في الأحــاديث النبويــة الشــريفة الكثــير من النصوص الـتي تحـذر من الكلام في الـدين بغـير علم معصـوم، فقد قال ﷺ: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث)[1]

وفي حديث آخر روي أنّ رجلا جاء رسـول اللـه ﷺ فقـال: علّمنى من غرائب العلم، فقال له: مـا صـنعت في رأس العلم؟ فقال: وما رأس العلم؟ فقال ﷺ: هل عرفت الربّ تعالى؟ قال: نعم. قال فما صنعت في حقّه؟ قال: مـا شـاء اللـه . فقـال ﷺ: هل عرفت الموت؟ قال نعم. قال فما أعددت له؟ قال: ما شاء اللـه . قـال ﷺ: (اذهب فـأحكم مـا هنـاك، ثم تعـال نعلّمـك من غرائب العلم)[2]

لكن الشيطان استطاع أن يقنع فئات كثيرة من هذه الأمـة ـ كما أقنع من قبلهـا من الأمم ــ بـأن العلم ليس في التحقيـق، وليس في الاكتفاء بالمعصـوم، وإنمـا في حيـازة أكـبر قـدر من المعلومات التي لا يهم مصدرها، بقدر ما تهم كثرتها.

وقد بـدأ هـذا التضـليل منـذ السـلف الأول، حين لم يكتـف المسلمون ـ بفعل الإغواء الشيطاني ــ بالهـدي الإلهي المتمثـل في الثقلين اللذين أوصى رسول الله ﷺ بالاكتفاء بهمـا، وراحـوا إلى كعب الأحبــار ووهب بن المنبــه وغيرهمــا يســألونهما عن تفسير القـرآن وحقـائق الوجـود والكـون والتـاريخ.. ولم يـتركوا شيئا إلا سألوهم عنه.. كل ذلك لإرضاء ذلك الفضـول المعـرفي الذي تسرب إليهم الشيطان من خلاله.

وقـد ورد في بعض الروايـات أن بعض النـاس سـألوا كعبـا هذا السؤال الخطير: (أين كـان اللـه جـل جلالـه قبـل أن يخلـق عرشه، ومم خلق الماء الذي جعل عرشه عليه؟)

---

[1] () مالـــك (2/907، رقم 1616) ، وأحمـــد (2/287، رقم 7845) ، والبخـــارى (5/1976، رقم 4849) ، ومسلم (4/1985، رقم 2563)

[2] () رواه ابن السـني وأبـو نعيم في كتـاب الرياضـة وابن عبـد الـبر، انظـر: تخـريج الحافظ العراقي: إحياء علوم الدين (1/ 65)

ولم ينتفض كعب غضبا لهذا السؤال التجسيمي، وإنما راح ـ إرضاء لسائليه ـ يفتح كل نوافذ الكذب، ويحدثهم بما لا يوجد لا في القرآن، ولا في التوراة، ولا في أي كتاب من كتب الدنيا.. فقد كان من ضمن حديثه قوله: (إن الله تعالى كان قديما قبل خلق العرش، وكان على صخرة بيت المقدس في الهواء، فلما أراد أن يخلق عرشه تفل تفلة كانت منها البحار الغامرة واللجج الدائرة، فهناك خلق عرشه من بعض الصخرة التي كانت تحته، وأخر ما بقي منها لمسجد قدسه) (1)

وقد ورد في بعض الروايات أن الإمام عليا سمع هذه الفرية الخطيرة، فقال ردا عليها: (غلط أصحابك، وحرفوا كتب الله وفتحوا الفرية عليه، يا كعب ويحك إن الصخرة التي زعمت لا تحوي جلاله ولا تسع عظمته، والهواء الذي ذكرت لا يحوز أقطاره، ولو كانت الصخرة والهواء قديمين معه لكانت لهما قدمته، وعز الله وجل أن يقال: له مكان يؤمى إليه، والله ليس كما يقول الملحدون، ولا كما يظن الجاهلون، ولكن كان ولا مكان بحيث لا تبلغه الأذهان)(2)

وهكذا كان موقف ابن عباس من ذلك الفضول المعرفي الذي جعل الناس في أول الإسلام ينصرفون عن المصادر المعصومة إلى المصادر المختلطة، فقال: (كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله أحدث تقرؤونه محضا لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم)(3)

وروي أنه سأل رجلا مقبلا من الشام: من لقيت؟ قال:

1() تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، 2 / 5.

2() تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، 2 / 5.

3() البخاري في الاعتصام (26: 2) وفي التوحيد (42: 2)

كعبا. قال: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: إن السماوات على منكب ملك. فقال: (كذب كعب، أما ترك يهوديتـه بعـد! ثم قرأ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فـاطر:41]) (1)

لكن ابن عباس نفسه الذي قـال هـذا الكلام، راح أعـداؤه، وأعداء الدين ينسبون إليه التلمذة على كعب الأحبـار، وينسـبون إليه معها الكثير من الروايات التي لا دليل عليها سوى الوهم.

وهكذا كان الكثير من الصالحين يحذرون من ذلك الفضول الـوهمي للمعـارف غـير المعصـومة، ويـدعون بدلـه إلى العلم الحقيقي الذي يملأ المـؤمن بـالقيم القرآنيـة النبيلـة، فقـد قـال أحدهم معبرا عن ذلك: (تعلموا ما شئتم أن تعلمـوا فـو اللـه لا يأجركم الله حتى تعملوا، فان السفهاء همتهم الرواية، والعلماء همتهم الرعاية)، وقال آخر: (أنـزل القـرآن ليعمـل بـه فاتخـذتم دراسته عملا، وسيأتي قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخيـاركم) (2)

وقد ذكر الغزالي كيف تحول التـذكير والوعـظ في عصـره والعصور التي سبقته إلى وسيلة لتحريف القرآن الكريم، فقال: (فقد اتخذ المزخرفون هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسـهم، ونقلوا اسـم التـذكير إلى خرافـاتهم، وذهلـوا عن طريـق الـذكر المحمـود، واشـتغلوا بالقصـص الـتي تتطـرق إليهـا الاختلافـات والزيادة والنقص، وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها، فإن من القصص ما ينفع سماعه، ومنها ما يضر وإن كان صـدقا. ومن فتح ذلـك البـاب على نفسـه اختلـط عليـه الصـدق بالكذب، والنافع بالضار، فمن هذا نهى عنه)(3)

وضـرب مثـالا على التـذكير الصـحيح النـافع بقصـة شـقيق

---

(1) الكافي الشافي لابن حجر العسقلاني، 139.

(2) إحياء علوم الدين، 1/110.

(3) إحياء علوم الدين، 1/59.

البلخي مع تلميذه حاتم الأصم، حيث سأله، فقال: منذ كم صحبتني؟ قال حاتم: منذ ثلاث وثلاثين سنة. قال: فما تعلمت مني في هذه المدة؟ قال: ثماني مسائل. قال شقيق له: إنّا للّه وإنا إليه راجعون، ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثماني مسائل! قال: يا أستاذ لم أتعلم غيرها، وإنى لا أحب أن أكذب.. فقال: هات هذه الثماني مسائل حتى أسمعها قال حاتم: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبا فهو مع محبوبه إلى القبر فإذا وصل إلى القبر فارقه، فجعلت الحسنات محبوبي، فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي، فقال: أحسنت يا حاتم، فما الثانية؟ فقال: نظرت في قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:40-41]، فعلمت أن قوله سبحانه هو الحق، فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى ..)[1]

وهكذا راح يعدد له ما استفاده منه فترة صحبته الطويلة له.. وهي كلها معان عملية أخلاقية تتفق مع الأهداف القرآنية التي ترمي إلى صياغة الشخصية المسلمة في أوج نبلها وطهرها وصفائها.

لكن الشيطان ـ مع كل تلك التحذيرات ـ استطاع أن يقحم نفسه في كل المعارف الدينية ابتداء من تفسير القرآن، والحديث، والفقه والعقيدة وكل العلوم الإسلامية الممتلئة بالفضول الذي لاحاجة له.

وبسبب ذلك تضخم تراثنا، وأصبح بحاجة إلى مختصين في كل جانب من الجوانب، مع أن الأمر لو ظل على صفائه الأول، ما كان يحتاج إلى كل ذلك الكم الكبير من الأسفار.. فالدين بسيط سهل واضح لا يحتاج إلى كثرة التفاصيل.

وأحب هنا ـ من باب المثال لا الحصر ــ أن أذكر نموذجا عن مسلك من مسالك الشيطان في إرضاء الفضول المعرفي للمسلمين الذين لم يكتفوا بالقرآن، ولا الحديث، ولا حتى

1() إحياء علوم الدين، 1/111.

الإسرائيليات، وإنما راحوا إلى ما يسمونه الكشف والإلهام، ليكتشفوا من الأسرار ما لم يدونه السابقون، ولا اللاحقون.

وهذا النموذج هو عن شخصية من المتأخرين، تعلمت علوم الشريعة، لكنها لم ترض نهمها، ولا فضولها، فراحت لشيخ أمي يدعي الكشف والشهود والتعرف على حقائق الوجود، لتجلس إليه، وتسجل ما يفتريه من معارف، لتصبح تلك الافتراءات بعدها عقائد يعتقدها الناس، ولا دليل عليها إلا ما ذكره ذلك الشيخ المكاشف الملهم.

فمن الأسئلة التي سأله عنها سؤاله عن الثلج، وكيف يتشكل، فأجابه شيخه الملهم بقوله: (إن الثلج ماء عقدته الرياح، وأصله غالبا من ماء البحر المحيط، وماء البحر المحيط مخصوص بثلاث خصال لا توجد في غيره: البرودة إلى النهاية لمجاورته للرياح ولبعده من حر الشمس، ولذلك ينعقد بأدنى سبب؛ والصفاء إلى النهاية لأنه ماء باق على أصل خلقته لم يمتزج بشيء من جواهر الأرض، فإنه بحر محمول على القدرة الأزلية وليس هو على الأرض ولا على شيء؛ والبعد إلى النهاية فإن المسافة التي بيننا وبينه في غاية البعد)[1]

وبعد أن قدم له هذه المقدمة راح يفسر له كيفية تشكل الثلج، على ما أوصله إليه الكشف، فقال: (إذا فهمت فاعلم أنه تبارك وتعالى إذا أمر الرياح تحمل شيء من هذا الماء فإنه ينعقد بعد حمله لأجل البرودة التي فيه، ولا تزال الرياح تحمله شيئا فشيئا وتسحقه قليلا قليلا، فإذا طالت المسافة التي بيننا وبينه حصل له انحلال إلى النهاية حتى يصير مثل الهباء، وتجتمع أجزاؤه لأجل النداوة التي فيه، ولذا ينزل على هيئة لطيف الصوف أحيانا وعلى هيئة أخرى أدق منها أحيانا، فهذا أصل الثلج. وذلك بخلاف البرد، فإن المسافة التي بين انعقاده ونزوله غير طويلة لأنه من مياه البحور التي في وسط الأرض ومن الغدران التي تجتمع في الأرض عند نزول الأمطار غالبا، ولذلك قد يوجد أحيانا في وسط الحبة شيء من البرد من أجزاء

---

[1] () الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز، أحمد بن مبارك اللمطي السجلماسي.

الأرض مثل الكريس ونحوه، وقد شاهد الثقات ذلك وإنما ما كان مستديرا على هيئة الطعام المفتول الغليظ وأغلظ لأجل مصاككة الريح له، فراجت أجزاؤه في الهواء تحت أيدي الرياح مثل روجان أجزاء الطعام تحت أيدي المرأة في الصحفة، فحصل فيه فتل مثل ما يحصل في الطعام، ولما نزل في الحين شاهدنا ذلك فيه ولو أنه تأخر نزوله ودامت المصاككة والروجان لاندهقت أجزاؤه وصار ثلجا، فهذا بيان أصل الثلج، وبيان الموضع الذي ينزل منه) [1]

ومن القضايا العلمية التي سأله عنها سؤاله عن الزلزلة وسببها، فقال: (سبب زلزلة الأرض تجلي الحق سبحانه لها.. ثم هذا التجلي كان كثيرا في أول خلق الأرض وقبل خلق الجبال فيها، فكانت تضطرب وتميل، ثم حجبها جل وعلا وخلق الجبال فيها فسكنت، وفي آخر الزمان يكثر هذا التجلي أيضا، فلا تزال الأرض تكثر فيها الزلازل والرجفات حتى يبيد من عليها) [2]

ومن القضايا العلمية التي سأله عنها سؤاله عن (سبب الخسف الذي يظهر في الأرض أحيانا ويكثر في آخر الزمان)، فأجابه بقوله: (إن الأرض محمولة على الماء، والماء محمول على الريح، والريح تخرج من حيز عظيم بين السماء وطرف الماء أعني ماء البحر المحيط، وذلك أنا لو قدرنا رجلا يمشي ولا ينقطع مشيه فإنه يبلغ لمنقطع الأرض، ثم يرى البحر المحيط، فإذا فرضناه يمشي عليه ولا ينقطع مشيه، فإنه لا يزال يمشي فوق الماء إلى أن ينقطع، وعند ذلك لا يبقى بينه وبين السماء إلا الجو الذي تخرج منه الريح، فيرى رياحا لا تكيف ولا تطاق وهي بإذن الله الحاملة للماء والأرض والماسكة للسماء، ثم هي خدامة دائما لا تسكن لحظة ومرتفعة نحو السماء، فإذا أراد الله تعالى أن ينزل المطر على قوم أمر شيئا من تلك الرياح فانعكس إلى جهة الأرض وعبر على متن البحر المحيط أو غيره، فيحمل ما أراد الله تعالى من الماء إلى

[1] الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

[2] الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

الموضع الذي يريده عز وجل. وكم مرة أنظر إلى طرف الماء الموالي للجو الذي فيه الرياح فأرى فيه جبالا من الثلج لا يعلم قدر عظمها إلا الله عز وجل، فإذا رجعت من الغد وجدت تلك الجبال نقلت إلى طرف الماء الموالي لجبل قاف، وإذا الرياح المنعكسة هي التي حملتها.. وإذا أراد الله أن يخسف بقوم دخلت الرياح في منافس وتقويرات في الأرض بينها وبين الماء، فإذا دخلت الريح فيها وقع في الأرض انحلال ينشأ عنه الخسف، وفي آخر الزمان تكثر المنافس في الأرض، ويكثر انعكاس الرياح إلى جهة الأرض فتكثر الخسوفات حتى يختل نظام الأرض، وكل ذلك بفعل الله تعالى وإرادته.. ثم لا تزال الرياح تعمد نحو الأرض وتقصد خرابها حتى تصير الأرض في أيدي الرياح بمثابة الغربال في يدي الذي يصير بها زرعا من تراب أو حجر، والمصير في الأرض هو عجب الذنب الذي تركب منه الذات، وهو لبني آدم بمثابة الزريعة، فيجمعه الله من أعماق الأرض وقعر البحار ووسط الكهوف وتحت الجبال وحيثما كان، وفي ذلك اليوم تسير الجبال ثم تنسف نسفا من قوة الريح، ثم تنشق السماء وينزل الماء على عجب الذنب فلا يزال ينمو شيئا فشيئا كنمو القلنيص والبطيخ ونحوهما ويظهر على وجه الأرض) [1]

وليت فتوح الشيخ وإلهاماته وكشوفه اكتفت بهذا، بل راحت إلى كل ما يرتبط بالدين من حقائق تضيف إليها الكثير من الأوهام التي تحولت بمرور الزمن إلى عقائد تزاحم وتفسر العقائد القرآنية.

ومن الأمثلة الخطيرة على ذلك فصل عقده المؤلف لإلهامات شيخه وكشوفه حول ما سماه [ديوان الصالحين]، وهو الديوان المكلف بتدبير كل شيء.

وقد وصف الشيخ بدقة أصحاب هذا الديوان، فقال: (الديوان يكون بغار حراء الذي كان يتحنث فيه النبي ﷺ قبل البعثة.. فيجلس الغوث خارج الغار ومكة خلف كتفه الأيمن

---

[1] () الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

والمدينة أمام ركبته اليسرى؛ وأربعة أقطاب عن يمينه، وهم مالكية على مذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه؛ وثلاثة أقطاب عن يساره، واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة؛ والوكيل أمامه ويسمى قاضي الديوان، وهو في هذا الوقت مالكي أيضا من بني خالد القاطنين بناحية البصرة، واسمه سيدي محمد بن عبد الكريم البصراوي؛ ومع الوكيل يتكلم الغوث، ولذلك سمي وكيلا، لأنه ينوب في الكلام عن جميع من في الديوان)[1]

ثم ذكر الشيخ تشكيلة هذه الحكومة، فقال: (والتصرف للأقطاب السبعة على أمر الغوث، وكل واحد من الأقطاب السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته، والصفوف الستة من وراء الوكيل، وتكون دائرتها من القطب الرابع إلى الذي على اليسار من الأقطاب الثلاثة، فالأقطاب السبعة هم أطراف الدائرة، وهذا هو الصف الأول، وخلفه الثاني على صفته وعلى دائرته، وهكذا الثالث إلى أن يكون السادس آخرها)[2]

ويذكر الشيخ أنه يوجد في هذه الحكومة بعض النساء، فيقول: (ويحضره النساء، وعددهن قليل، وصفوفهن ثلاثة، وذلك في جهة الأقطاب الثلاثة التي على اليسار فوق دائرة الصف الأول في فسحة هناك بين الغوث والأقطاب الثلاثة)[3]

ويذكر أنه يحضره كذلك بعض الأموات، فيقول: (ويحضره بعض الكمل من الأموات، ويكونون في الصفوف مع الأحياء، ويتميزون بثلاثة أمور:أحدها: أن زيهم لا يتبدل بخلاف زي الحي وهيئته، فمرة يحلق شعره، ومرة يجدد ثوبه، وأما الموتى فلا تتبدل حالتهم، فإذا رأيت في الديوان رجلا على زي لا يتبدل فاعلم أنه من الموتى، كأن تراه محلوق الشعر ولا ينبت له شعر، فاعلم أنه على تلك الحالة مات، وإن رأيت الشعر على

1() الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

2() الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

3() الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

رأسه على حالة لا يزيد ولا ينقص ولا يحلق فاعلم أيضا أنه ميت، وأنه مات على تلك الحالة.. ثانيها: أنه لا تقع معهم مشاورة في أمور الأحياء، لأنهم لا تصرف لهم فيها، وقد انتقلوا إلى عالم آخر في غاية المباينة لعالم الأحياء، وإنما تقع معهم المشاورة في أمور عالم الأموات.. ثالثها: أن ذات الميت لا ظل لها، فإذا وقف الميت بينك وبين الشمس فإنك لا ترى له ظلا، وسره أنه يحضر بذات روحه لا بذاته الفانية الترابية، وذات الروح خفيفة لا ثقيلة وشفافة لا كثيفة)[1]

ثم ذكر الشيخ كيفية حضور الموتى لاجتماعات تلك الحكومة الخفية، فقال: (والأموات الحاضرون في الديوان ينزلون إليه من البرزخ يطيرون طيرا بطيران الروح، فإذا قربوا من موضع الديوان بنحو مسافة نزلوا إلى الأرض ومشوا على أرجلهم إلى أن يصلوا إلى الديوان، تأدبا مع الأحياء وخوفا منهم)[2]

ويذكر الشيخ أن تشكيلة تلك الحكومة تضم أيضا بعض الملائكة والجن، فيقول: (وتحضره الملائكة وهم من وراء الصفوف، ويحضره أيضا الجن الكمل وهم الروحانيون وهم من وراء الجميع وهم لا يبلغون صفا كاملا.. وفائدة حضور الملائكة والجن أن الأولياء يتصرفون في أمور تطيق ذواتهم الوصول إليها، وفي أمور أخرى لا تطيق ذواتهم الوصول إليها، فيستعينون بالملائكة وبالجن في الأمور التي لا تطيق ذواتهم الوصول إليها)[3]

ويذكر حضور رسول الله ﷺ لمجالس تلك الحكومة، فيقول: (وفي بعض الأحيان يحضره النبي ﷺ، فإذا حضر عليه الصلاة والسلام جلس في موضع الغوث، وجلس الغوث في موضع الوكيل، وتأخر الوكيل للصف. وإذا جاء النبي ﷺ جاءت

---

[1] الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

[2] الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

[3] الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

معه الأنوار التي لا تطاق، وإنما هي أنوار محرقة مفزعة قاتلة لحينها، وهي أنوار المهابة والجلالة والعظمة، حتى إنا لو فرضنا أربعين رجلا بلغوا في الشجاعة مبلغا لا مزيد عليه ثم فجؤوا بهذا الأنوار، فإنهم يصعقون لحينهم، إلا أن الله تعالى يرزق أولياءه القوة على تلقيها، ومع ذلك فالقليل منهم هو الذي يضبط الأمور التي صدرت في ساعة حضوره ﷺ)[1]

ويذكر الشيخ تاريخ تلك الحكومة، أو ذلك الديوان، قبل الإسلام، فيقول: (إن الديوان أولا كان معمورا بالملائكة، ولما بعث الله النبي ﷺ جعل الديوان يعمر بأولياء هذه الأمة، فظهر أن أولئك الملائكة كانوا نائبين عن أولياء هذه الأمة المشرفة، حيث رأينا الولي إذا خرج إلى الدنيا وفتح الله عليه وصار من أهل الديوان، فإنه يجيء إلى موضع مخصوص في الصف الأول أو غيره، فيجلس فيه ويصعد الملك الذي كان فيه، فإذا ظهر ولي آخر جاء إلى موضع ويصعد الملك الذي في ذلك الموضع، وهكذا كانت بداية عمارة الديوان حتى كمل ولله الحمد، كلما ظهر ولي صعد ملك. وأما الملائكة الذين هم باقون فيه، ويكونون خلف الصفوف الستة كما سبق، فهم ملائكة ذات النبي ﷺ الذين كانوا حفاظا لها في الدنيا، ولما كان نور ذاته ﷺ مفرقا في أهل الديوان بقيت ملائكة الذات الشريفة مع ذلك النور الشريف)[2]

وهكذا يستمر الشيخ في سرد أوهامه التي يتلقفها تلميذه كحقائق مطلقة، ثم يسجلها في كتاب كتبه ليبرهن به على ولاية شيخه، وكونه من أهل الأسرار الذين كشفت لهم حقائق الوجود.. ثم يتلقاها من بعده أولئك البسطاء الذين أعرضوا عن القرآن الكريم وحقائقه الواضحه الممتلئة بالعقلانية والفطرية والبداهة، وراحو إلى ذلك الدجل والخرافة والأوهام التي لبست لباس الدين، بل راحت تعطي قدسية خاصة لها باسم الولاية.

1() الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

2() الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

من الاعتراضـات الـتي اعـترض بهـا علي بعض الفضـلاء اعتبـاره أني متنـاقض مـع نفسـي حين أجمـع بين الـدفاع عن الصوفية، وذكر محاسنهم، والرد الشديد على السـلفية وغـيرهم ممن يكفـرونهم، في نفس الـوقت الـذي أكتب فيـه المقـالات والكتب في نقدهم.

وسر هـذا الاعـتراض هـو الـوهم الكبـير الـذي أوقعنـا فيـه أنفسنا، وبسببه تسلط الشيطان علينا، وهو تحويلنا الحقائق من عـالم المعـاني المجـردة إلى عـالم الأشـخاص والجماعـات والانتماءات.. وليس شيئا مجردا مقدسا يمكننا أن نقترب منه أو نبتعد.

وهكذا الأمر مع التصوف .. فهو في ذاته قيم نبيلة ظهـرت في هذه الأمة بفعـل تفاعلهـا الطيب مـع القـرآن الكـريم، ومـع الأولياء والصالحين.. ونتيجة لـذلك ظهـر تـراث عـريض، وطـرق كثيرة، منها ما يقترب من الجوهر الصـوفي الحقيقي، ومنهـا مـا يبتعد.

والجـوهر الصـوفي الـذي يمثـل حقيقـة التصـوف، والـذي نستعمله معيارا لمدح الصوفية أو نقدهم هو تلك القيم والأخلاق التي عبر عنها الشيخ محمد بن علي القصاب بقولـه: (التصـوف أخلاق كريمة ظهرت في زمان كـريم من رجـل كـريم مـع قـوم كرام)(1)

وعـبر عنهـا آخـر، وهـو رويم بن أحمـد البغـدادي بقولـه: (التصـوف مبـني على ثلاث خصـال: التمسـك الفقـر والافتقـار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار)(2)

وعـبر عنهـا معـروف الكـرخي مؤسـس التصـوف الأول،

---

(1) الرسالة القشيرية (2/ 441)

(2) الرسالة القشيرية (2/ 441)

وتلميذ الإمام الصادق، بقوله: (التصوف الأخذ بالحقائق واليـأس مما في أيدي الخلائق)[1]

وغيرها من النصوص الكثيرة التي تـبين أهـداف التصـوف، ووسائله وأساليبه وحقائقه ونحو ذلك.. وكلهـا ممـا يعـرض على القرآن الكريم ليعرف نسبته للدين اقترابا أو ابتعادا.

لكن هـذا لم يسـتمر طـويلا.. أو لم يسـتمر عنـد جميـع الصوفية.. فقد ظهرت الطامات، وظهر معها انحـراف كبـير عن ظواهر الشـريعة.. وأصـبحت العقيـدة تؤخـذ بالكشـف والإلهـام والمنامات.. وأصبح كمـال الإنسـان وولايتـه أن يـرطن بعبـارات غريبة عن الدين وحقائقه القطعية.

ولـــذلك ظهـــر نقـــد التصـــوف.. ليس عنـــدي .. ولا عنـــد المخالفين للصوفية.. وإنما عند كبار الصوفية أنفسهم.. فلا نجـد مصدرا من مصادر التصوف الكبرى إلا ونجد فيه نقـد مـا أحدثـه الصوفية، وانحرفوا به عن القيم الأولى للتصوف.

فالقشـيري (ت465هـ) ــ صـاحب الرسـالة الـتي تعتـبر دستورا للتصوف ـ يقول في مقدمـة رسـالته: (اعلمـوا، رحمكم الله، أن المحققين من هذه الطائفـة انقـرض أكـثرهم ولم يبـق في زماننا من هذه الطائفة إلا أثرهم، كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها

حصلت الفترة في هذه الطريقة.. لا، بل إندرست الطريقة بالحقيقة: مضى الشيوخ الذين كـان بهم اهتـداء، وقـل الشـباب الذين كـان لهم بسـيرتهم وسـنتهم اقتـداء، وزال الـورع وطـوى بساطه، واشتد الطمع وقوى رباطه. وارتحل عن القلوب حرمـة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ورفضوا التميـيز بين الحلال والحرام. ودانـوا بـترك الإحـترام. وطـرح الاحتشـام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصـوم والصـلاة، وركضـوا في ميدان الغفلات وركنـوا إلى انبـاع الشـهوات، وقلـة المبـالاة بتعـاطي المحظـورات، والارتفـاق بمـا يأخذونـه من السـوقة،

[1]() الرسالة القشيرية (2/ 441)

والنسوان، وأصحاب السـلطان. ثم لم يرضـوا بمـا تعـاطوه من سوء هذه الأفعال، حـتى أشـاروا إلى أعلى الحقـائق والأحـوال، وادعـوا أنهم تحـرروا من رق الأغلال وتحققـوا بحقـائق الوصـال وأنهم قائمون بـالحق، تجـري عليهم أحكامـه، وهم محـو، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لـوم، وأنهم كوشـفوا بأسرار الأحدية، واختطفـوا عنهم بالكليـة، وزالت عنهم أحكامـه للبشرية. وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصـمدية، والقائـل عنهم غـيرهم إذا نطقـوا، والنـائب عنهم سـواهم فيمـا تصـرفوا، بـل صرفوا)(1)

مع العلم أنه هو نفسه القائل قبل هـذا الكلام: (جعـل اللـه هذه الطائفة [أي الصوفية] صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافـة من عبـاده، بعـد رسـله وأنبيائـه، صـلوات اللـه وسـلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصـهم من بين الأمـة بطوالـع أنواره. فهم الغياث للخلق، والـدائرون في عمـوم أحـوالهم مـع الحق بالحق. صفاهم من كدورات البشرية، ورقـاهم إلى محـال المشاهدات بما تجلى لهم من حقـائق الأحديـة. ووفقهم للقيـام بآداب العبودية، وأشهد مجارى أحكام الربوبية. فقاموا بـأداء مـا عليهم من واجبات تكليـف، وتحققـوا بمـا منـه سـبحانه لهم من التقليب والتصريف. ثم رجعوا إلى الله، سبحانه وتعالى، بصـدق الافتقـار، ونعت الانكسـار، ولم يتكلـوا على مـا حصـل منهم من الأعمـال، أو صـفا لهم من الأحـوال. علمـا منهم بأنـه جـل وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد)(2)

وهكذا وقف قبله السُلمي (ت412هـ) الـذي يعتـبر مرجعـا كبيرا للصـوفية من خلال كتبـه المعتمـدة لـديهم، وخاصـة كتابـه المشهور [اللمع]، فهو لم يكتف بما ذكره القشـيري، وإنمـا راح يؤلف رسالة كاملة في نقد الصوفية سماها[رسالة في غلطـات الصوفية]، ومما جـاء في مقـدمتها قولـه: (واعلم أن في زمانـنـا هذا قد كثر الخائضون في علوم هـذه الطائفـة، وقـد كـثر أيضـا

1() الرسالة القشيرية (1/ 16)

2() الرسالة القشيرية (1/ 15)

المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون إليها والمجيبون عنها وعن مسائلها، وكل واحد منهم يضيف إلى نفسه كتابا قد زخرفه، وكلاما ألفه، وليس بمستحسَن منهم ذلك؛ لأن الأوائل والمشايخ الذين تكلموا في هذه المسائل وأشاروا إلى هذه الإشارات ونطقوا بهذه الحِكَم، إنما تكلموا بعد قطع العلائق، وإماتة النفوس بالمجاهدات والرياضات والمنازلات والوجد والاحتراق، والمبادرة والاشتياق إلى قطع كل علاقة قطعتهم عن الله -عزَّ وجلَّ- طرفة عين، وقاموا بشرط العلم، ثم عملوا به، ثم تحققوا في العمل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل) (1)

ثم راح يفصل أصناف الأخطاء التي وقعوا فيها، والتي انحرفت بهم عن المنهج الأصيل الذي هو السلوك التحققي والتخلقي.. فقال: (فطبقة منهم غلطوا في الأصول: من قلة إحكامهم لأصول الشريعة، وضعف دعائمهم في الصدق والإخلاص، وقلة معرفتهم بذلك.. وطبقة ثانية: منهم غلطوا في الفروع، وهي: الآداب، والأخلاق، والمقامات، والأحوال، والأفعال، والأقوال؛ فكان ذلك من قلة معرفتهم بالأصول، ومتابعتهم لحظوظ النفوس ومزاج الطبع؛ لأنهم لم يدنوا ممن يُروضهم، ويجرعهم المرارات، ويُوقفهم على المنهج الذي يؤديهم إلى مطلوبهم.. والطبقة الثالثة، كان غلطهم فيما غلطوا فيه: زلة وهفوة، لا علة وجفوة؛ فإذا تبين ذلك عادوا إلى مكارم الأخلاق، ومعالي الأمور، فسدُّوا الخلل، ولَمُّوا الشَّعَث، وتركوا العناد، وأذعنوا للحق، وأقروا بالعجز؛ فعادوا إلى الأحوال الرضية والأفعال السنية والدرجات الرفيعة، فلم تنقص مراتبهم هفوتُهم، ولم تظلم الوقتَ عليهم جفوتُهم، ولم تمتزج بالكدورة صفوتُهم)(2)

ومن انتقاداته لهم مبالغتهم في (السماع والرقص، واتخاذ الدعوات، وطلب الإرفاق، والتكلف للاجتماعات على الطعام،

1() اللمع، ص19.

2() اللمع، ص518-519.

وعند سماع القصائد والتواجد والرقص، ومعرفة صياغة الألحان بالأصوات الطيبة، والنغمات الشجية، والاختراع من الأشعار الغزلية، بما يشبه أحوال القوم، على نحو ما رأوا من بعض الصادقين، أو بلغهم ذلك عن المتحققين)(1)

وقد وصف بدقة حال بعض هؤلاء كما عاصرهم، وكأنه يصف واقعنا المشهود، فقال: (وطائفة توهَّمَت أن التصوف هو القول والرقص وسماع النغم والقصائد واتخاذ الدعوات والتّكلّف للاجتماعات لما رأوا من بعض الصادقين انبساطا في السماع في بعض الأوقات. وغلطت في ذلك ولم تعلم أن كل قلب تلوّث بشيء من الدنيا وكل نفس فيها شيء من البطالة والغفلة لا يصح لها السماع، بل لا يحل لها السماع)(2)

وهكذا راح يذكر أخطاءهم في تصورهم للإخلاص والتجرد، ثم يعقب عليه بذكره (أن العبد المطلوب بدرجة الإخلاص هو: العبد المهذب المؤدب، الذي هجر السيئات، وجرَّد الطاعات، وعمل في الإرادات، ونازل الأحوال والمقامات، حتَّى أدَّاه ذلك إلى صفاء الإخلاص)(3)

هذه مجرد نماذج عن انتقادات الطوسي صاحب اللمع للصوفية، مع العلم أن كتبه تعتبر مصادر أساسية للتصوف.

وهكذا نجد أبا حامد الغزالي (ت 505 هـ)، فهو مع ثنائه على الصوفية، وانتسابه إليهم إلا أنه انتقد بعض سلوكاتهم ودعاواهم، وحذر منها تحذيرا شديدا وصل إلى درجة الدعوة إلى إقامة الحد الشرعي على كل من يخلط على المؤمنين عقائدهم الواضحة البينة.

فقد قال في الإحياء: (وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية: أحدهما- الدعاوي الطويلة العريضة

---

(1) اللمع، ص530.

(2) رسالة في غلطات الصوفية، ص473، 474.

(3) اللمع، ص533.

في العشـق مـع اللـه تعـالى، والوصـال المغـني عن الأعمـال الظاهرة، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحـاد وارتفـاع الحجـاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وقلنـا كـذا، ويتشـبهون فيـه بالحسـين بن منصـور الحلاج الـذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: أنا الحق. وبما حكى عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: سـبحانى سـبحانى، وهـذا فن من الكلام عظيم ضـرره في العـوام، حـتى تـرك جماعـة من أهـل الفلاحـة فلاحتهم، وأظهـروا مثـل هـذه الـدعاوي، فـان هـذا الكلام يسـتلذه الطبـع، إذ فيـه البطالـة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامـات والأحـوال، فلا تعجـز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم، ولا عن تلقف كلمـات مخبطـة مزخرفة، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا: هـذا إنكـار مصـدره العلم والجـدل، والعلم حجـاب، والجـدل عمـل النفس. وهـذا الحـديث لا يلـوح إلا من البـاطن بمكاشـفة نـور الحق. فهذا ومثله مما قد اسـتطار في البلاد شـرره وعظم في العوام ضرره حتى من نطق بشيء منـه فقتلـه أفضـل في دين الله من إحياء عشرة)[1]

هذه مجرد نماذج بسيطة أردنا من خلالهـا أن نـبين أن نقـد التصوف لا يعني الوقوف ضده، ولا يعني تجاهل محاسنه وقيمه، ولا يعني الحكم على الصوفية جميعا، ولا يعني أننـا نؤيـد أولئـك الجهلة المتطرفين الذين يحكمون عليه بأحكامهم الجائرة.

وإنما يعني أننا ـ وحرصا على جمال الحقيقـة ــ نحتـاج كـل حين لإزاحة الغبار عنها، وتصفيتها، من باب النصـيحة للمؤمـنين، ولقيم الدين.. والمؤمن هو الذي يدور مع الحق حيثما دار.

1() إحياء علوم الدين: 1/61.